

يقولون في المثل الشعبي (حب واحكي وأكره و واحكي) في إشارة إلى اثر هوى النفس ومزاجها في طريقة نقل خبر ما، أو حادثة معينة، فهل ينسحب هذا القول على المرويات التاريخية منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا؟

عندما استخدم المؤرخ اليوناني المعروف هيرودوت ٤٨٤/٤٢٥ ق.م، كلمة (هستوري) لأول مرة، وجعلها عنواناً لكتابه، أحدث هذا العنوان ثورة في مجال الكتابة والتأليف التاريخي، ذلك أن هذه الكلمة، مأخوذة من الأصل اليوناني (هستوريا) ومعناها (البحث والمشاهدة والتقصي). ويبدو أن هيرودوت استخدم هذا المصطلح، كرد فعل على من سبقه من المؤرخين الذين كانت كتاباتهم تقتصر على القصص، التي تسعى لمتعة الأذن على حساب الدقة والأمانة، ودعا إلى الكشف عن الحقيقة من بين تلك القصص، وما يتبع ذلك من معان ودروس. لذلك عد هيرودوت، منذ ذلك الوقت، إماماً للتأريخ أو (أباً التأريخ)، كما يوصف أحياناً، فالاهتمام بأحداث الماضي، وبمخلفات الإنسان وآثاره، نزعة إنسانية عرفتها الحضارات القديمة.

منهج التاريخ

يمكننا القول إن المنهج التاريخي بدأ على يد اليونان، ولو بصورته البسيطة، ولكنها كانت بدايات موفقة، ساهمت في تحرير العقل الإنساني من الخرافة، وصاروا يعللون الظواهر بأسباب منطقية معقولة، واعتقدوا أن التاريخ غير خاضع لأوامر تفوق الطبيعة، ويمكن للإنسان بذلك أن يتفحّص أحداثه، ويناقش سر حدوثها دون اللجوء إلى الغيبيات، فعندما تنبأ طاليس الملطي بكسوف الشمس سنة ٥٨٥ ق.م، حفز اليونانيين نحو البحث والتفكير العلمي عندما بانت صحة هذا التنبؤ، وهاجم هكتيوس الملطي الأساطير اليونانية وعدها بمنزلة الخرافة، وذلك في حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وقد مهّدت هذه المقدمات

وغيرها الطريق أمام هيرودوت، سواء من حيث المنهج أو من حيث سعة الاهتمام.

عرف عن هيرودوت خبرته الواسعة بطبائع الشعوب، نتيجة أسفاره الكثيرة، وكان يتمتع بروح علمية وحسّ فني، ساعده على عرض معلوماته بطريقة شائقة، وأسلوب أدبي سلس، وقد اهتم كثيراً بالتأكيد على دور الأشخاص في صنع التاريخ، متأثراً بالشاعر اليوناني (هوميروس)، الذي كان يمجّد البطولة في شعره، فيقول هيرودوت إنه يدوّن التاريخ (لكي لا تطمس أعمال الرجال، وتبقى المآثر الكبرى والانجازات الباهرة بلا تمجيد ولا إعجاب سواء تلك التي كانت لليونانيين أو للبرابرة).

ومن مؤرخي اليونان البارزين ثوسيديدس ٤٥٦/٣٩٦ ق.م، صاحب النظرية المشهورة عن دورة التاريخ، أي (أن التاريخ يعيد نفسه) وكان ثوسيديدس أكثر دقة وموضوعية وعلمية من هيرودوت، فقد فصل في تاريخه الأساطير والملاحم والقوى الميتافيزقية عن التاريخ، وقدم للتاريخ فائدة كبيرة عندما أكّد على روح النقد للروايات، ولكنه لم يستعمل كلمة History. ويحتل المؤرخ اليوناني بوليبوس ١٩٨/١١٧ ق.م، مكانة مهمة في المنهجية اليونانية، فقد كان يؤمن بأن التاريخ هو خير وسيلة لتعليم الفلسفة، من خلال دراسة العبر والتجارب، فالإنسان يتعلم من أخطاء غيره، وأعتقد أن تزويق الكلام وتنسيقه واعتماد الأساطير لا يخدم الهدف، الذي يدرس التاريخ من أجله، وطالب أن يكون التاريخ سليم النتائج، خالياً من الغش لكي يؤدي غرضه.

التاريخ عند العرب

لم يتفق على تحديد أصل لفظة تاريخ في اللغة العربية، وقيل في ذلك آراء واجتهادات متباينة. من جانب آخر، فإن كلمة تاريخ لها في اللغة العربية معان عدة، فهي تعني تحديد زمن الحادثة باليوم والشهر والسنة، كتاريخ الميلاد، وتاريخ الاستقلال، كما تعني سير الزمن والأحداث أي التطور التاريخي، كقولنا تاريخ الكويت وتاريخ فرنسا، ولها معنى ثالث، فهي تطلق على عملية التدوين التاريخي أو التأريخ، وتطلق كذلك على علم التاريخ والمعرفة به، وكتب التاريخ وما فيها، وأخيراً، فهي تعني تاريخ الرجال أو سير الرجال. إلا أن أكثر المعاني إشكالاً هو صعوبة الفصل بين التاريخ، بمعنى الزمن الماضي، والتاريخ بمعنى تدوين أحداث الماضي، فاقترح البعض حلاً لهذا الإشكال، بأن كلمة تاريخ (دون همزة)، هو الزمن الماضي، والتأريخ (بالهمزة) هو تدوين أو توريخ أحداث الماضي.

والعرب قبل الإسلام، كان لهم نتاجهم التاريخي أيضاً، وكل جماعة منهم كان لها – على طريقتها وبمقدار مستواها الحضاري – تاريخها الخاص، بعضه مدوّن وبعضه منقوش وبعضه شفهي، وهو تراث واسع من الأخبار والأحداث العديدة والمتفاوتة في الأهمية، وكذلك متفاوتة في درجة الصحة والصدق.

فعرب اليمن في الجنوب، كان لهم على مخلفاتهم الأثرية من معابد وقلاع وسدود، نقوشهم بالخط المسند، وكان لدى عرب الحيرة في العراق كتب تحوي أخبارهم وأنسابهم، أشار إليها الطبري وابن هشام، كما كانت لهم نقوش، حاول بعض المؤرخين قراءتها، أمثال ابن الكلبي لاستخلاص مادة تاريخية، منها، ولدى العرب في الشام سواء في تدمر أو البتراء نقوشهم التسجيلية المعروفة. وفيما عدا ذلك، لم يعرف عن العرب الغساسنة أي نشاط في مجال التسجيل أو التدوين التاريخي.

أما عرب الحجاز فلهم خصوصيتهم في هذا الميدان، فقد كان لهم تراثهم الثقافي والتاريخي ولكنه لم يكن مدوناً، بل كانت تتناقله الأجيال مشافهة، وقد تمثل في صورتين هما: الأنساب، وأيام العرب.

فالأنساب هي سلاسل أسماء دعت إليها الحاجة الاجتماعية للتعارف أو للتمايز، وحول هذه السلاسل النَسَبيّة كانت تنسج القصص التاريخية من بطولات ومواقف في الكرم أو

الشجاعة أو الإباء. لقد مثلت الأنساب جوهر الفكرة التاريخية عند العرب، باعتبارها شكلاً من أشكال التعبير التاريخي، إلا أن تلك المعلومات النَسَبيّة قبل الإسلام بقيت شفهية لمدة طويلة حتى بعد ظهور الإسلام، لذلك أثير الكثير من الشكوك حول دقتها وصدق تسجيلها. أما الصورة الثانية فقد جسدتها قصص أيام العرب، وهي روايات جماعية، بدوية المنشأ، تحكي قصص النزاعات والحروب القبلية، وتضم ذكريات التاريخ البدوي بطريقة مسلية ومثيرة، ولكنها مقطوعة الصلة بالزمن، وعلى الرغم من أن هذه القصص ذات جذور تاريخية، فإن صلتها بالتأريخ بمعناه الحقيقي صلة بعيدة.

من دون شك فإن قصص ايام العرب تحمل الكثير من الحقائق التاريخية، ولكنه في الوقت نفسه جرى الكثير من التحوير والزيادة على أشكالها وصيغها الأولى - كما هو حال الأنساب - وذلك بسبب تناقلها شفاهة وتأخر تسجيلها بعد ظهور الإسلام لأكثر من قرن ونصف القرن من الزمان.

لقد أصاب هذه القصص، نتيجة لذلك، اضطراب تاريخي، فاختلطت الأحداث والأسماء بعضها مع بعض، حتى في أكثر الأحداث شهرة كيوم ذي قار - على سبيل المثال - فقد ذكرت أغلب المصادر أن النعمان بن المنذر (ملك الحيرة)، قبل أن يغدر به الملك الفارسي ويسجنه ثم يقتله، عندما دعاه لزيارته، كان قد استودع سلاحه وأولاده عند هاني بن مسعود الشيباني (زعيم بني شيبان) آنذاك، بينما يرى آخرون أن هاني بن مسعود هذا لم يدرك هذه المرحلة التاريخية، ونما حفيده (هاني بن قبيصة بن هاني بن مسعود) هو الذي كان زعيماً لبني شيبان في هذه الحقبة. من جانب آخر تعرضت هذه القصص إلى انزلاق زمني، أي انتقال الحدث من زمن لآخر، فلا يوجد تاريخ محدد أو نهائي متفق عليه لأغلب أحداث تلك الحقبة، فضلاً عما انتهت إليه تلك القصص من تضخيم ومبالغة، فمع تباعد الزمن، وانتقالها شفاهاً من جيل إلى جيل، كبرت مع الأيام صورها وأحداثها، فصار البطل فيها خارقاً في بطولته وقدراته التي فاقت قدرات أقرانه من الناس العاديين، وأصبح العاشق هائماً على وجهه في البوادي والقفار، والحبيبة الجميلة غدت خارقة في جمالها، كأنها هبطت من كوكب آخر، وعن تأصل روح الكرم عند العربي آنذاك راح يذبح أبناءه لضيوفه بدلا من ناقته.. وهكذا. كل ذلك من أجل أن تبدو هذه القصص أكثر إثارة ومتعة وأكثر شداً للسامعين.

الإسلام والتاريخ

على الرغم من أن كلمة تاريخ لم ترد لفظاً في القرآن الكريم، فإن الإسلام بطبيعته دين تاريخي الروح، يحمل في ذاته فكرة تاريخية عميقة، والعقيدة الإسلامية لا تعد نفسها جديدة، ولكنها عريقة الجذور في التاريخ، فهي عودة إلى الدين الأصل، إنها ﴿.. مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ.. ﴾ [الحج:٧٨].

وما الحنيفية واليهودية والمسيحية والإسلام إلا دين واحد متصل الحلقات. وقد قدم القرآن الكريم مادة تاريخية مهمة، وإن كانت مجملة أو عامة وتكتفي بالإشارة أو التلميح، تسمى أحسن القصص، وكان الهدف منها الموعظة والعبرة، إلا أن الرغبة لمعرفة تفاصيل ما أجمله القرآن من تلك القصص فتحت باباً من أبواب المعرفة الدينية دخل منها التأريخ كوسيلة شرعية لعمليات التفسير القرآني، وبذلك منح القرآن الكريم نظرة جديدة إلى الماضي عدت كأساس فكري للعقيدة الإسلامية. لذلك ليس بمستغرب أن تكون الأمة العربية بعد الإسلام من أكثر الأمم إنتاجاً للأدب التاريخي.

التدوين التاريخي

لقد أفاد التدوين التاريخي عند العرب المسلمين (في القرن الثاني للهجرة) من علوم الحديث، لذلك كانت منهجية، بعض المؤرخين الرواد لا تختلف عن منهجية رجال الحديث، فهذا

محمد بن جرير الطبري (ت.٣١٠هـ) أشهر مؤرخي العرب اعتمد الأسانيد في رواياته لتوثيقها، كما توثق الأحاديث النبوية الشريفة. واعتمد هذا المنهج - بطريقة أو بأخرى - عدد غير قليل من المؤرخين الأوائل.

وفضلاً عن الأثر الواضح لكل من القرآن والسنة في تطور الكتابة التاريخية عند العرب المسلمين، دخل عنصر ثالث وسّعَ من دائرة الاهتمام بالتاريخ عندهم ومنحه أبعاداً جديدة، ذلك هو ظهور الأحزاب السياسية والفرق والمدارس الفكرية، فقد درجت كل فرقة على توظيف التاريخ لمصلحة قناعتها ومنهجها الفكري، وسعت - بقدر ما تستطيع - إلى إعادة صياغة أحداثه من جديد، حتى صرنا إزاء أكثر من قراءة التاريخ، خاصة فيما يتعلق بتاريخ العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام، وإذا علمنا أن التدوين التاريخي عند المسلمين لم يبدأ إلاّ بعد منتصف القرن الثاني للهجرة، وأن أحداث تلك الحقبة (قبل الإسلام وصدر الإسلام) قد جرى تناقلها شفاهاً على ألسن الناس والرواة عبر الأجيال لأكثر من قرن ونصف القرن من الزمن، حتى صار من الصعب إسنادها إلى مصدر فردي أو جماعي بعينه، فضلا عن غلبة الطابع الذوقي على صياغتها مما يضفي على أسلوب سردها موقفاً وجدانياً عادة ما يكون منحازاً، لذلك وقع الكثير من التأويل والحذف أو الإضافة في مجريات وتفاصيل بعض أحداثها، فتباينت الروايات تبعاً لتباين أهواء الرواة والمؤرخين وانتماءاتهم الحزبية والمذهبية، ومع تقادم الأيام والسنين وشيوع تلك المادة التاريخية المدونة وانتشارها في البلدان الإسلامية، اقتنعت كل فئة بما تحت يدها من نصوص ووقائع وأحداث، معتقدة بأنها هي وحدها التي تمسك بناصية التاريخ الصحيح والنهائي، ومتهمة سواها بالتمسك بتاريخ محرف أو مزور.

أوهام المؤرخين

لقد تنبه فلاسفة التاريخ منذ زمن بعيد، وفي مقدمتهم ابن خلدون في العالم الإسلامي، وفيكو في الغرب، إلى تلك الظواهر في تدوين التاريخ، فسماها ابن خلدون (مغالط المؤرخين) بينما أطلق عليها فيكو اسم (أوهام المؤرخين).

فيشير ابن خلدون إلى تحيز بعض المؤرخين في كتاباتهم التاريخية، إلى فئة دون أخرى لأسباب ذاتية أو حزبية ضيقة، قائلا: "إن النفس إذا كانت على حال الاعتدال أو الحياد في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر، حتى تتبين صدقه من كذبه. وإذا خامرها تشيع لرأي قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، دون تمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله".

وفضلاً عن هذا الوهم الذي سماه (التشيع للآراء والمذاهب) شخّص ابن خلدون أوهاماً أخرى وقع فيها المؤرخون بقصد أو دون قصد، كالثقة المطلقة بالناقلين (الرواة) والذهول عن المقاصد، ووهم المبالغة، وإخفاء الحقيقة، خوفاً أو تقرباً لذوي الجاه والسلطان وغير ذلك العديد من الأوهام.

إن إشكالية الصدق (الذي هو صنو الحقيقة) والكذب (الذي هو رديف التخيل) في التاريخ، قضية قديمة، قدم الوعي بصناعة التاريخ، وقد قدم لها العرب قديماً حلولاً أرضت - إلى حد ما - مؤسسة التاريخ عندهم آنذاك، وقد يطول الحديث كثيراً لو طرقنا هذا الباب بالأمثلة والشواهد، فهناك الآلاف من الروايات الموضوعة، والأحداث المفبركة لخدمة أغراض قد تكون قريبة، أو أهداف مرسومة على مدى بعيد، وقد تنطلي تلك الأحداث المصطنعة، أو الأوهام المدسوسة بين جملة من الحقائق، بيسر وسهولة على القارئ العادي غير المختص، فيصدّق بها، وربما يتحمس لها ويدافع عنها دون وعي بحقيقتها. ومن اللافت حقاً، أن نجد أن الأحداث المصطنعة والمفبركة، تكون أشدّ تأثيراً، وأقوى أثراً، في مشاعر الناس وعواطفهم، من حقائق التاريخ ومجريات أحداثه الفعلية.




الإجازة المستحيلة..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

جئتُ إلى أوربّا
حتى أغسلَ ذاكرتي منكْ..
فإذا بكَ مخبوءٌ في داخلِ حقائبي
جئتُ لكي أستريحَ من دُوَارِ الحُبّ..
ومن دُوَار البَحرْ..
فإذا بأمْواجكَ ترفعُني إلي الأعلى
وترميني على صَدركَ.. مرةً أخرى..
حاولتُ الهروبَ من صوتِكَ النحاسيّ..
ورائحتِكَ الطاغيَهْ..
فإذا بي أهربُ إلى الأمامْ...
جئتُ إلى بلاد الشمالْ..
لأستَمْتِعَ بإجازتي.
فإذا بكَ، تحجزُ كلَّ مقاعدِ الطائراتْ..
وكلَّ غُرَفِ الفنادقْ..
وكلَّ تذاكِرِ المسارحْ..
وكلّ الباصَاتِ وسيَّاراتِ الأُجْرَةْ..
وتتركُني أنامُ على الرصيفْ..
ذهبتُ على جزيرةٍ في البحر الكاريبي..
لا يرتادُها أحدٌ.. ولا تصلُ إليْها المراكبْ..
ولكنّني، حين ذهبتُ إلى الشاطئ..
لأتمدّدَ على رمالِهِ الدافئهْ..
خَرَجْتَ لي كسمكةِ قرشٍ من أعماق البحرْ..







وأكَلْتَني..
كلُّ أسفاري التي خطَّطْتُ لها
كانت حِبراً على وَرَقْ..
كلُّ رحلاتي كانت ضدَّ جاذبيّةِ الأرضْ..
فلا أهميَّةَ لإجازةٍ..
لا تُوَقِّعُ عليها أنت..
ما كانَ أغْباني..
حين فتحتُ أبوابَ جَهَنَّم بيدي..
فاحْتَرَقتْ أصابعي..
واحترِقَ مَعْطفي الجلْديّ..
احترقتْ كلُّ الثيابِ الجديدةِ التي اشتريتُها..
ما عدا ذاكرتي..
مَنْ يُغَطيني من أمطار أوربّا
بعدَ رحيلك..؟
مَنْ يكونُ ليَ السَقفَ.. والمِظلَّهْ؟
من يُخَبِّئُني في جَيْبِ معْطفِهْ؟
أو تحتَ جلدَةَ ساعتِهْ..
أو في راحةِ يَدِهْ..
عندما تضربني الرياحْ..
وتَمْضَغُني العاصِفهْ..
ماذا أفعلُ في هذه المقاهي
المكتظّةِ بالعَفاريتِ.. والأشباحْ..؟
كيفَ أدخُلُ إليها..
وكلُّ الوُجُوه هيَ وجْهُكْ..
وكلُّ الأصواتِ هيَ صوتُكْ..
وكلُّ الدُخانِ الذي يملأ رئتيَّ..
هو دُخَانُك..







ماذا أطلبُ من النادِلْ؟
إذا كنتَ ستخرجُ لي
من كُلِّ فنجانِ قهوةٍ أشربُهْ؟؟
مُوجعٌ فصْلُ الشتاء..
حين لا تكونِ معي.
موجِعةٌ رائحةُ الحطَبْ..
في مواقد الريفِ البريطانيّ.
مُوجعةٌ قصورُ العصر الفكتوري..
موجعةٌ دَقَّاتُ ساعة (بيغ بنْ)..
موجعةٌ نكْهَةُ شاي (الإيرْلْ غراي)
الذي كنا نشربُهُ معا.
في الساعة الخامسَةْ..
وموجعةٌ موسيقى الملاعق والسكاكينْ
وهي تقطعُ قالبَ الزُبْدَهْ..
وتقطعُ شرايين قلبي!!
مَن يجعلُ الزوابعَ أقلَّ جُنُوناً؟
والأمطارَ أقلَّ همجيَّهْ؟..
والصقيعَ أقلَّ صقيعاً؟
إنّ أسناني تصْطَكُّ من البرْدْ..
وأضلاعي تصْطَكُّ من الشوقْ..
وقلبي يَصْطَكُّ من الوَحْدَه
وذاكرتي ترتجف من الحرمان..
فكيف أستعيدُ تَوَازُني في هذه المدينَهْ..
التي مَشَّطنا شوارعَها معاً..
وثَرْثَرنا في مقاهيها معاً..
واستلقيْنا على أعشاب حدائقِها معاً؟
كيف أتفاهَمُ مع هذه المدينَهْ؟







التي رأتْني دائماً
أتعثّرُ جانبَك كالحَجَلهْ..
وأتعلّقُ كالتفاّحةِ بذراعِكَ اليُسْرى..
وترفُضُ الآنَ أن تعتَرفَ بي وَحدي؟؟
كنتُ أُحِبُّ الشتاءَ.. لأنّه كان يُشْبهُكْ..
لأنّه كان يُشْبهُني..
بحَماقاتِنا الصغيرهْ..
وانفجاراتِنا الكبيرَهْ..
وجُنُونِنا الجميلْ..
كنتُ أحبُّهُ.. لأنّه كان يُدثّرُنا بعباءته الرماديَّهْ..
ويُلَفْلفُنا بشَراشِفِ الثلجِ..
ويَدْهَنُ قُلوبَنا كلَّ ليلَهْ..
بزَيت الكافورْ..
ومسحوقِ الوَجْد والهُيَامْ..
لماذا قطَعْتَ عنّي مَؤونة الشتاءْ..
من زيتٍ.. وحَطبٍ.. وكبريتٍ..
وحبٍ.. وحنان.. وبطانياتِ صُوفْ..؟
لماذا سرقت من عينيَّ ألوانَ قوسِ قُزَحْ..
وتركتَني مَرْسومةً بالأبيضِ والأسودْ؟
لماذا سحبتَ سجّادةَ اللغةَ من تحت أقدامي؟
وتركتَني خَرْساءْ..؟
كلُّ الفصُولِ مُسْتَحيلةٌ في غيابِكْ..
الصيفُ مُستَحيلْ..
والربيعُ مُسْتَحيلْ..
والخريفُ مُسْتَحيلْ.
والشتاءُ لا يكونُ شتاءً حقيقياً..
إلاّ مَعَكْ..




الحضارة العربية في الأندلس وآثارها في الثقافة لإسبانية من خلال كتاب الحمراء لواشنطن أرفينغ

بقلم:
عبد الكريم ناصيف

مدخل تاريخي

سنة ٧١٢م دخل العرب إسبانيا عبر المضيق الذي يفصل بين أوروبا وإفريقيا والذي سمي بعد ذلك باسم ذلك الفاتح العربي طارق بن زياد فصار مضيق جبل طارق. بعد ذاك انفتحت أمام العرب شبه الجزيرة الإيبيرية كلها ثم اجتازوا جبال البرينيه إلى سهول تولوز، جنوب فرنسا وأواسطها إلى أن وصلوا إلى بواتييه جنوبي باريس حيث وقعت المعركة التي قتل فيها القائد العربي عبد الرحمن الغافقي وتوقف على الأثر المد العربي باتجاه الشمال والغرب، أتراهم كانوا يحلمون بإغلاق الدائرة؟ يتجهون نحو الغرب ثم الشمال فالشرق فإذا هم من جديد في دمشق؟ ربما.. فقد كان الجهاد أحد أركان الإسلام.. إنه باب من أبواب الجنة كما يقول علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وجيوشهم التي اتجهت نحو الشرق وصلت إلى الصين. لقد كانوا مؤمنين برسالة يريدون نشرها في العالم كله.. لكن هل تجري الرياح دائماً كما تشتهي السفن؟

ذلك الحلم انكسر على كل حال وبدأ الانحسار إلى أن انحصر المد خلف جبال البرينيه الإسبانية ثم ازداد الانحسار إلى أن ذهبت مدريد وقرطبة وإشبيلية.. وحصر العرب بعد معركة العقاب ١٢٣٦ في الجنوب الإسباني: الأندلس أني مملكة غرناطة وهي الأرض نفسها التي كان العرب الفينيقيون الذين أسسوا مملكة قرطاجة في تونس. قد دخلوها وأقاموا فيها مملكة هي امتداد لقرطاجة دعوها قرطاجين هل يعيد التاريخ نفسه؟ ربما.. لكن حتى هذه المملكة الصغيرة جاءها يوم غدت فيه غير قادرة على الصمود في وجه ضغوط شديدة وقوى صاعدة

فاستسلمت وخرج آخر ملوك العرب أبو عبد الله الصغير في غرناطة كسيراً حزيناً وصوت أمه يردد: ابك كالنساء ملكاً لم تصنه كالرجال. كان ذلك عام ١٤٩٢ وبين التاريخين ما يقارب الثمانية قرون، فماذا فعل العرب في الأندلس خلال تلك القرون الثمانية؟ أية حضارة بنوا؟ أية آثار تركوا؟

كثيرون درسوا فتح العرب للأندلس وحكمهم فيها، حضارتهم وآثارهم، على الصعد السياسية، العسكرية، التنظيمية، الدينية، العمرانية.. الخ.

ولكن وحده واشنطن ارفينغ، الكاتب الأمريكي الذي عاش ما بين ١٧٨٣ و ١٨٥٩م درس الأثر الثقافي والاجتماعي للعرب وحضارتهم في تلك البلاد وخرج لنا بكتابه الرائع: الحمراء.

كتاب الحمراء

من هنا كان اهتمامنا بهذا الكتاب ولهذا السبب أردنا أن نقدمه للقارئ العربي عله يطلع على شهادة دارس موضوعي غير متحيز جاء بدافع البحث العلمي الخالص والضمير المنصف الذي لم يعرف دعاية صهيونية ولا أموال روتشيلد ولا حقداً إمبريالياً على العرب الذين بنوا حضارة في الأندلس بمعناها الكبير - إسبانيا - لم يستطع أحد في الغرب والشرق إلاَّ أن يشهد بعظمة صروحها وروعة إنجازاتها وكبير تأثيرها.

كتب واشنطن ارفينغ كتابه هذا بين ١٨٢٩و ١٨٣٢م حين عينته حكومته وزيراً مفوضاً لدى الحكومة الإسبانية، فذهب إلى الأندلس وإلى غرناطة والحمراء تحديداً، بحث وتقصى ثم خرج بكتابه "الحمراء" الذي طبع لأول مرة عام ١٨٥١م، والذي قال في مقدمته لتلك الطبعة: "كتبت هذه الحكايات والقصص. آخذا بعين الاعتبار المحافظة على ألوان النظرة المحلية لأظهر هذا العالم الأصغر - الأندلس - حيا ومعبراً تماماً كما ساقني الحظ لأن أجد نفسي فيه. ولأن العالم خارجه ليست لديه إلاَّ فكرة ناقصة عنه، حاولت أن ألتقط وأبرز وأعبر عن شخصيته بنصفيها الشرقي والإسباني، في ذاك الخليط الأسطوري من البطولة والشعر، متتبعاً كل ما تلاشى في آثاره من العظمة والجمال بهدف تسجيل تقاليد الفروسية التي نبعت منه والتي كانت تجوب في قاعات ذاك الملك بأسطورية خارقة جسَّدها عرق خليط من الناس والشاهد عليها اليوم هو تلك الأطلال.."

في كتابه الحمراء، يصف المؤلف بدقة كبيرة معالم قصر الحمراء وقلعته التاريخية في غرناطة التي هي كناية عن مصيف عذب الهواء بالمقارنة مع جو المدينة الحار، مشيراً إلى أهمية الزخارف الخطية العربية التي أبدعت أول ما أبدعت في دمشق، كذلك تتبع أصل البورسلين الذي يشتهر به الهولنديون، وهم جالية كبيرة في نيويورك أيامه، وكيف أنهم أخذوه من تلك الأصول الدمشقية عبر الأسبان الذين بسطوا نفوذهم على الأراضي الواطئة ذات يوم. ثم يشير على أن الحمراء ليست قصراً واحداً، بل هي قصور وحصون، أبراج ودهاليز، ساحات ومستودعات بحيث كانت تتسع لأربعين ألف مقاتل عدا عن الملك ونسائه، جواريه وعبيده، رجال بلاطه وحواشيه.. الخ.

وتلك القصور التي بدأ بناءها "محمد بن الأحمر" أمير غرناطة ومؤسس سلالة بني نصر فيها، في منتصف القرن الثالث عشر

الميلادي لم تنته إلاَّ على يد الأمير يوسف بن الحجاج أي بعد مائة عام أو يزيد. لقد قامت بالأساس لتجسد التصور الإسلامي لجنة الخلد على الأرض ولتكون حاضرة ملك هو آخر موجة من موجات الامتداد العربي إلى الغرب.

حضارة العرب

يعد الكاتب القرون الثمانية من التواجد العربي على تلك الأرض قرون إشعاع حضاري على العالم من الأندلس، قام به رجال فتحوا وحكموا وازدهروا.

لنر ما يقوله الكاتب في هذا الصدد "لهذا كانت مدن إسبانيا العربية منهلاً للغرب الأوروبي المسيحي لتعلم كل الفنون، فجامعات طليطلة وقرطبة وإشبيلية وغرناطة كانت مقصد الطلاب من الغرب ممن أرادوا تعلم العلم من العرب ليستخرجوا من ذاك الكنز الذهبي العتيق رغادة العيش بالعلم ومن مراكز قرطبة وغرناطة التي انبثقت منها الموسيقى والشعر، تعرف محاربو الشمال أيضاً على كيفية الاستعمال الأمثل لزخم واندفاع الفروسية.."

والكاتب يتتبع عوامل وبواعث ذلك الازدهار الحضاري فيقول: ".. وارتدادهم عند حدود البرينيه دفعهم.. إلى ترك المبدأ الإسلامي في الفتح ليعملوا على توطيد أقدامهم في إسبانيا فقط، وهم كفاتحين لا يضاهي بطولاتهم إلاَّ عدم تعصبهم، ولقد تضافر هذان العاملان مع الزمن على تشكيل أمة فريدة في مكان تواجدهم في الأرض التي افترضوا أن الله قد أعطاها لهم، لذلك أرادوا أن يزودوها بكل ما يمكن أن يرفد سعادة الإنسان فيها فساعدوا كل علم وفن وحسنوا الزراعة والصناعة والتجارة، مما مكنهم من تأسيس إمبراطورية لا تضارعها أي إمبراطورية مسيحية جاذبين إلى فلكهم كل عظمة وإتقان الحضارة العربي في المشرق لذلك كانوا في أوج عظمتهم الحضارية، النور الشرقي الذي اهتدت به ظلمات أوروبا.."

في أوج عظمتهم الحضارية هذه، بني قصر الحمراء ليظل على مدى القرون رمزاً لتلك الحضارة وتجسيداً لمطامح قوم كانوا دائماً صانعين للحضارة وكانت بلادهم منشأ الحضارات الإنسانية ومهداً لها. يقول واشنطن ارفينغ: ".. ربما ليس هناك أثر يعبر عن عصره وناسه أكثر من الحمراء، تلك القلعة الكالحة خارجاً والقصر الباذخ داخلاً. الحرب تكشر فوق أسواره، وأنغام الشعر تنسرب في قاعاته الرائعة المعمار. بلا مقاومة، يجد المرء نفسه وهو ينتقل بخياله إلى تلك الأيام، حين كانت إسبانيا العربية الإسلامية منطقة إشعاع للحضارة والنور وسط أوروبا المسيحية إنما الغارقة في الظلام.

لقد كانت الحمراء خارجيا، قوة حربية تقاتل من أجل البقاء ولكن داخلياً دولة مكرسة للآداب والعلوم والفنون، حيث الفلسفة تصقلها العاطفة فتتحول إلى حكمة ومأثورات، وحيث وسائل الترف الحسية تتسامى بها وسائل التفكير والخيال.."

لقد درس ارفينغ وطوال سنوات ثلاث الآثار التي تركها العرب في ثقافة الشعب الإسباني طوال تلك القرون الثمانية، فوجد أنها كثيرة تدخل في لحمة وسداة تلك الثقافة.. إذ يقول: ".. إن فتح العرب لتلك البلاد قد حمل معه حضارة أرقى وطرازاً أنبل في التفكير إلى إسبانيا القوطية.." ذلك أن الفتوحات العربية كانت قد بدأت قبل حوالي مائة عام تقريبا، والمد الحضاري العربي كان قد انتشر إلى

الشرق والغرب والشمال والجنوب.. وكانت الدولة الإسلامية قد تشكلت أحسن تشكل وكانت قد ترسخت أسس المجتمع العربي الإسلامي، نظمه وتشريعاته وقوانينه، فالعرب لم يوفروا جهداً في الاستفادة من تجارب الشعوب الأخرى، الأمر الذي جعلهم يبسطون سيطرتهم على أنحاء واسعة من المعمورة في تلك الأيام ويقيمون أكبر إمبراطورية في التاريخ، لماذا؟ يقول أرفينغ: "العرب أناس شاعريون، لامعو الذكاء، سريعو البديهة، أصحاب إباء وشهامة وحكمة وعقل وقد تشربوا بعلوم الشرق وآدابه، وحيثما كانوا يقيمون مركز قوة ونفوذ يصبح على الفور مركز استقطاب للمتعلمين والنابغين، كما كانوا يقومون بصقل الناس الذين يفتحون بلادهم وتشذيبهم، شيئاً فشيئاً كان ذلك الاهتمام بالتعليم والصقل يعطيهم حقاً وراثياً، على ما يبدو، في موطئ قدمهم ذاك في البلاد ولا يعود أحد ينظر إليهم على أنهم غزاة دخلاء بل جيران منافسون.."

هذه النظرة الجديدة التي استطاع العرب أن يحصلوا عليها من الشعب الإسباني عبر الزمن هي التي مهدت الطريق لإيجاد نوع جديد من العلاقات يسمح بالأخذ والعطاء بين الشعبين، بالتأثير والتأثر، أو كما نقول اليوم "المثاقفة" ويشرح أرفينغ هذا فيقول: ".. ذلك أن الأرضية الأساسية من الحقد والعداء واختلاف الدين (بين الشعبين) كانت قد فقدت حدتها. والدول المتجاورة، كانت أحياناً، رغم اختلاف العقائد، تعقد فيما بينها التحالفات، الدفاعية منها والهجومية، بحيث كان الصليب والهلال غالباً ما يشاهدان جنباً إلى جنب وهما يقاتلان ضد عدو مشترك. في أيام السلم أيضاً كان شبان الطبقة النبيلة من كلا المذهبين يلجؤون إلى المدن نفسها، مسيحية كانت أم مسلمة ليلتحقوا بالمدارس التي يتعلمون فيها العلوم العسكرية، بل حتى أيام الهدنة المؤقتة للحروب الدموية كان المحاربون الذين عادوا لتوهم من العراك الشديد ضد بعضهم بعضاً يلقون جانباً عداوتهم ويلتقون في مباريات ومبارزات ودية ويشاركون في الأنواع الأخرى من الاحتفالات والمهرجانات ويتبادلون المجاملات بروح نبيلة كريمة، على ذلك النحو أصبحت الشعوب المختلفة تمتزج معاً وتختلط بنوع من التواصل السلمي وإذا كان هناك أي تنافس فإنما يكون على درجة عالية من الرقي والنبل الذي يتناسب ع روح الفارس الشهم النبيل.."

الآثار

إذن، كما يقول أرفينغ، قامت بين الشعبين العربي والإسباني نوع من العلاقات الفريدة جعلت المثاقفة حتمية والتبادل الثقافي أمراً لا بد منه لكن بما أن قانون علم الاجتماع يقول: طبقاً لما عبر عنه ابن خلدون في مقدمته "إن الشعوب المغلوبة تقلد الغالبة والمحكوم يقلد الحاكم والفقير الغني.. الخ" فقد كان من الطبيعي أن يقلد أهل الأندلس الفاتحين الجدد، سادة العالم يومذاك وأن يحاكوهم ويعجبوا بهم ويأخذوا عنهم، بل إننا بالعودة إلى المخطوطات العربية والكتب التراثية القديمة يمكننا أن نرى أن زيجات كثيرة كانت تحصل بين العرب والإسبان نتيجة العلاقات التي كانت تقوم بينهم في السلم أو في الحرب فثمة الكثير من مصاهرات الجوار وعلاقات الحب وحالات الأسر التي نتج عنها تزاوج بين هذين الشعبين مثال على ذلك: زواج الأمير نصر الموحدي من الأميرة الإسبانية ليندا راكسا وزواج الأميرة العربية "الست مريم" من

الدون بيدرو فينغاس. نتيجة هذه العلاقات الفريدة نقرأ عن قصص عجيبة حدثت بين هذين الشعبين ووقائع غريبة لا تحدث لغيرهما من الشعوب أبداً. يذكر ارفينغ العديد من تلك الوقائع لكننا نكتفي بذكر واحدة منها، إذ يقول: "لقد أدت الهدنة الطويلة التي أعقبت (معركة سلادو) والتي باءت جهود يوسف (المقصود هنا يوسف الأول أمير غرناطة) لتجديدها بالفشل، مع عدوه المميت (ألفونسو الحادي عشر) صاحب قشتالة، أدت إلى حصار جبل طارق، ودون جدوى، حاول يوسف مراراً رفع هذا الحصار، وفي غمرة هذا التوتر، تلقى نبأ بأن خصمه المميت قد وقع ضحية الطاعون، وبدل أن ينتهز هذه الفرصة، يعيدنا يوسف إلى ماضي العرب المشرق في مثل هذه الظروف، إذ يحزن عليه ويقول "لقد خسر العالم أحسن أمرائه" والمؤرخون الإسبان الذين شهدوا على هذا القول، أكدوا أن فرسان العرب، ولتأثرهم بقول أميرهم هذا، أعلنوا الحداد على موت ألفونسو ولم يقم أي من الذين كانوا قرب جبل طارق المحاصر بأي عمل عدائي ضد المسيحيين أثناء الحداد.." وبالطبع، هناك في السجلات والكتب قصص وحكايات كثيرة عن مثيلات هذه المعاملة الكريمة والاحترام المتبادل، بل والاعتراف بالجميل والوفاء وحسن المعاملة ورد المعروف.. الخ.

لكن ما يهمنا هنا هو أن نمر مروراً سريعاً، لضيق المجال، بما تركه العرب من آثار ثقافية واجتماعية في الأندلس.

أ- على صعيد الفن

حمل العرب معهم - كما يقول أرفينغ - حضارة راقية وذوقاً رفيعاً ربما تجلى أكثر ما تجلى في فن العمارة، حيث كانوا يقيمون المساجد والقصور والصروح التي لم تعرف الأندلس ولا أوروبا يومذاك مثيلاً لها قط. لقد حملوا معهم فن (الأرابسك) وهو على ما عليه من رفعة ورقي، تناسق وتناغم، والإسبان لم يكونوا قد عرفوا هذا الفن، فالزخرفة بالخط والحرف العربي هي من إبداعات دمشق العربية التي صدرتها للوطن العربي كله وبالتالي لأنحاء الامبراطورية العربية كافة، وقد صنعوا، بهذه الزخرفة، روائع فنية كانت وما تزال تسحر، ليس الشعب الأندلسي فحسب، بل العالم كله. يقول أرفينغ "يبدو الأرابسك للعين غير الخبيرة، والذي يزين جدار قصر الحمراء، أنه مجرد عمل من حفر اليد، لكن التفاصيل الدقيقة فيه لا تظهر إلاّ للعين الفاحصة التي عليها أن تراعي عمومية الانسجام في متغيرات تلك التفاصيل المذهلة، ويمكننا أن نعمم هذا الأمر على كل النمارق والمنمنمات التي تزينها أو تزين الأواني والأدوات الأخرى فتضفي عليها صفة سماوية سامية.." وبسبب هذه الصفة السماوية السامية، ربما، حافظ الشعب الإسباني على تلك التحف الفنية الرائعة لتكون اليوم شاهداً قاطعاً على شدة إعجاب هذا الشعب بالفن العربي الذي دخل بلاده وترك آثاراً فيها خالدة. ها هو ذا أيضاً يسجل شدة إعجاب الناس، حتى يومنا هذا بتلك الرائعة الفنية، إذ يقول: "إن قصر الحمرا هو كعبة زوار إسبانيا، من الذين ينشدون رؤية الجانب التاريخي والشعري الرومانطيقي لتلك البلاد. فكم من أسطورة وتقليد صحيح ووهمي، وكم من رقصة وأغنية عربية وإسبانية حول الحب والحرب والفروسية مرتبطة بهذا الركن التاريخي، فهو سرير ملك العرب هناك، المحاط بالروائع والعجائب، من أفخم ما صنعته يد الفن الجميل بهدف تشخيص وتكريس تصور الجنة السماوية عند المسلمين في إمبراطوريتهم الإسبانية".

ب- على صعيد اللغة

لا شك أن الآثار التي تركتها اللغة العربية على الإسبانية كبيرة وهامة، تحتاج للبحث من أخصائيين في اللغة واللسانيات، لكن أرفينغ يكتفي بأمثلة كبقاء "الـ" التعريف العربية في اللغة الإسبانية، إضافة إلى أن كل الكلمات التي تبدأ بأل هي كلمات عربية خالصة. هناك أيضاً الأسماء، فكثير من أسماء المواقع والقرى ماتزال تحمل أسماءها العربية، مثل "مرسية، الكرز، البسيط" بلدة "طريف، الجزيرة، جبل طارق، مدينة سالم"، "فونتا لابيدرا" أي "نبع البيدر" وادي دارو "أي الدارة" الوادي الكبير الذي ما يزال بلفظه الحرفي.. إلى آخره..

لكنني من قراءاتي الخاصة اطلعت على أبحاث قام بها مختصون حديثون أذكر منهم العالم اللغوي الدكتور رافائيل لابيسا الذي وضع كتاباً بعنوان "تاريخ اللغة الإسبانية" وهذا بعض ما جاء فيه عن أثر اللغة العربية فيها: "يأتي العنصر العربي في مفردات اللغة الإسبانية في الدرجة الثانية من الأهمية بعد العنصر اللاتيني، وتوجد في لغتنا حوالي أربعة آلاف كلمة عربية ماعدا المصطلحات الدارجة على الألسن المأخوذة من العرب والتي تبناها الأندلسيون بسبب تفاعل الحضارة العربية في أرضهم وفي أسلوب حياتهم"

من هذه المصطلحات التي يذكرها المؤرخ اللغوي لابيسا: عبارة "ojala" "إن شاء الله" إذا ما عزموا على أمر وعبارة "Aole" أي الله إذا ما أرادوا أن يعبروا عن إعجابهم بالرقص أو الغناء أو مصارعة الثيران..الخ" أما آلاف الكلمات العربية فبعضها مايزال كما هو في الأصل مثل: الضيعة، المخدة، البركة، القطن، الكحل، الفارس.. الخ

ومنه ما حرف وتغير لفظه قليلاً بسبب كتابته بالحرف اللاتيني لكن يمكن بسهولة رده إلى أصله العربي، نجد من ذلك الكثير من القاموس العصري الهام الذي وضعه عدد من المستعربين الإسبان بعنوان VOS.

جـ- التقاليد والعادات

لعل شدة الصراع وطول الاختلاط والتمازج بين الشعب العربي والإسباني ترك طابعه حتى على مزاج الشعب الإسباني وعلى عاداته وتقاليده. يقول أرفينغ "للشعب الإسباني المزاج الشرقي نفسه في حب سماع الحكايات والغرام بالغرائب فهم يتحلقون حول أكواخهم في الأمسيات الصيفية أو حول المدافئ بزوايا المحال في الشارع، ليستمعوا بسرور إلى قصص معجزات القديسين ومغامرات الرحالة، ومخاطرات قطاع الطرق واللصوص" ولعل هذا المزاج نفسه هو الذي جعلهم أقرب إلى العرب في كل ما يتعلق بمسألة التقاليد والعادات "الشرف والمروءة، النخوة والشهامة". يقول أرفينغ: ".. كنت أستمتع أكثر وأكثر بسجلات التاريخ الإسبانية القديمة التي وجدتها هناك.. وقد استمتعت على نحو خاص بتلك التواريخ الطريفة التي تتناول العهود التي كان فيها العرب يحتفظون بموطئ قدم لهم في شبه الجزيرة، ورغم كل ما فيها من تعصب أعمى وعدم تسامح أحياناً، إلاّ أنها ملأى بالفصول النبيلة والعواطف الكريمة، ما يحس فيها المرء بنكهة شرقية رفيعة عبقة لا توجد في السجلات الأخرى لتاريخ شبه الجزيرة حين كانت أوروبة خالصة – والحقيقة أن إسبانيا – حتى في الوقت الراهن هي بلاد منفصلة مقطوعة تاريخاً.." عادات، أعرافاً ونمط تفكير عن بقية أوروبا. إنها بلاد رومانسية لكن ليس

لرومانسيتها عاطفية الرومانسية في أوروبا المعاصرة. إنها مستمدة بصورة رئيسية من مناطق الشرق بكل ما فيها من إشراق وألق، مستمدة من المدرسة العالية - التفكير للفروسية العربية الشرقية.

د- المهرجانات والأعياد

مما لاحظه إرفينغ في جولاته في الأندلس واختلاطه بهذا الشعب الرومانسي الساحر، كما يقول، أنه يحب المهرجانات والاحتفالات فهم يهتبلون كل عيد أو مناسبة أو فرصة لإقامة الأفراح والاحتفال بالمهرجانات وكل ذلك وفق طقوس محددة وعادات مقدسة لا يحيد أحد منهم عنها قيد أنملة مع أن هذه الاحتفالات والمهرجانات، كما يقول ارفينغ: ".. تستهلك الكثير من مدخرات هذا المجتمع البسيط وتشكل عبئاً مادياً عليه..". وفي مكان آخر يقول: "ومن يوم فتحت الحمرا وصار مجلس الملك فيها وقاعاتها الإسلامية مسرحاً لعزف الغيتار والكاستانيت يأتي الناس كل سنة ليمرحوا بأزيائهم الأندلسية ويرقصوا رقصات تقليدية موروثة عن العرب.."

هـ - الغناء والموسيقى

كذلك يحب الشعب الإسباني الموسيقى والغناء، لكن إلى أي درجة تأثر هذا الشعب بحب العرب للغناء والموسيقى؟ هذا ما يصعب تحديده. كان العرب كما يقول ارفينغ في كتابه "شعبا أبهج مما هم عليه اليوم. إذ كانوا لا يفكرون إلا بالحب والموسيقى والشعر لذلك عملوا من كل مناسبة فرحاً وكرسوها بالموسيقى، فمن كان يقول أفضل الشعر ومن كانت تغني أفضل الألحان، كانوا المفضلين عند الناس.." ولعل بروز ظاهرة الشعراء الجوالين "التروبادور" تعود إلى الظاهرة نفسها عند العرب، فالشاعر يتنقل من أمير إلى أمير ومن قصر إلى قصر، وربما كان يحمل معه ربابة، كما هي العادة الجارية لدى شعرائنا الشعبيين حتى اليوم، يلقي أشعاره أو يغنيها. إن الشاعر العربي جوال بطبعه، ألم يقل القرآن الكريم "ألم تر أنهم في كل واد يهيمون؟" ارفينغ لا يجزم، لكن يشير إلى ذلك، غير أن ما يجزم به هو التالي "لهذه الأسباب كلها، ازدهر ذلك العدد الكبير من شعراء الغزل في غرناطة ولهذه الأسباب ظهرت أناشيد الحب تلك التي تضوع بشذا الحب والحرب.. تلك الأناشيد التي ما تزال تشكل فخر الأدب الإسباني وبهجته إن هي إلاّ أصداء لقصائد الفروسية والغزل التي كانت في الماضي تبهج بلاط الملوك في الأندلس وتبعث في قلوبهم المسرة والتي كما يدعي مؤرخ حديث لغرناطة، تعود إليها أصلاً قصيدة "ريمة القشتالية" وذلك اللون من فنون المسرح الذي يقدمه الجوالون في غرناطة..

كما يتكلم عن العلاقة بين الشعبين في الأندلس في مكان آخر فيقول أن حوليات تلك الأيام ملأى بالأمثلة التي توضح تلك الحالة من الرقي والنبل والكرم والرومانسي والرفعة والتركيز على الشرف والكرامة مما ينشر الدفء ويبعث الراحة في النفس حين يقرأه المرء. إنها موضوعات جاهزة لتكون مادة لمسرحيات وأشعار وطنية هي التي كانت مادة رائعة لتلك الأناشيد والأغاني التي تجدونها في كل مكان في إسبانيا والتي تشكل أنفاس الحياة للشعب الإسباني..

و- الموروث الشعبي

ونقصد به الثقافة الشعبية وما توارثه الإسبان جيلاً بعد جيل من قصص وحكايات وأساطير عن الصراع الذي دار طويلاً بينهم وبين العرب، البطولات التي حدثت، الوقائع

المدهشة التي جرت، وغرائب العلاقة بين شعبين متجاورين، كان كل منهما يحمل للآخر الاحترام والإعجاب والتقدير.

على هذا الجانب يركز واشنطن ارفينغ في كتابه الحمراء كل التركيز ربما لاعتباره أن اللاوعي الجمعي، حسب نظرية عالم النفس كارل يونغ، هو الذي يجسد مدى تأثر شعب بغيره، وهو الذي يوضح أبعاد ذلك التأثر. لهذا، منذ اليوم الأول لدخوله الحمرا شرع يبحث عن آثار الحضارة العربية الثقافية والاجتماعية في سهول الأندلس وجبالها، في أحاديث الناس ومحكياتهم فخرج بالكثير.. إنه يقول: "ولعل الصفة الأساسية من صفات الريف الإسباني هو منظر الطاحون العربية القيمة التي تنتصب دائماً على جداول الأنهار الأندلسية مع ما يرافقها من بروج للدفاع.. وقد كان توقفنا الثاني في (الفاندول) حيث بقايا قصر عربي آخر مع برجه المصاحب والمطل على سهل الكامبينا.. إن هذه القصور كانت معاقل قوية لحماية السهول من الغزو والنهب الذي كانت تتعرض له المحاصيل والماشية..".

إذن، حيثما توجه ابن الأندلس، ثمة آثار عربية تذكره بماضي ذلك الريف وتلك المدن التي كانت ذات يوم في غاية الازدهار، الأمر الذي جعل الحضور العربي في موروثه كبيراً. يقول ارفينغ: ".. لا يوجد موضوع أكثر شيوعاً من قصص الكنوز التي دفنها العرب عندهم والتي تتناقلها كل البلاد. فكل من ينظر إلى جبال (السييرا) الموحشة، سيرى الأبراج والقلاع العربية منتصبة فوق القمم، كذلك حين تسأل المكاري سوف يتوقف ويؤخر إشعال سيجارته ليخبرك عن بعض قصص الكنوز الإسلامية المدفونة تحت هذه المعاقل، كما لا تجد أي قصر مهدوم في أي مدينة إلاّ وله قصة تقليدية عن كنز كان فيه، يتناقلها الناس من جيل إلى جيل، خاصة من يجاورون هذا القصر من الفقراء".

ولأنه كان يسود الجهل والأمية والكثير من التعصب الديني، فقد اصطبغت تلك القصص بالغموض وأجواء السحر والجن والشياطين إلى درجة تبدو الآن أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة، وبأساطير الأقدمين العجيبة الغريبة. "ففي تلك القصص الخاصة ذات الصلة بالشرق، وخاصة في المقاطعات الإسبانية الجنوبي. كل ثروة مخبوءة محروسة (برصد) سحري يحميها، ويكون هذا الرصد الحامي على شكل وحش مرعب أو تنين أو أحياناً أخرى روح رعبي جالس بجانب كنزه بكامل سلاحه، شاهراً سيفه دون حراك كالتمثال وهو يراقب من عصور دون أن يغفو".

على أن ارفينغ لا يترك هذه الظاهرة دون تفسير، فوجود آلاف الأساطير التي تدور حول الكنوز والحكايات والقصص التي ترويها الجدات للأحفاد، والآباء للأبناء، لا بد وأن لها أسساً على أرض الواقع.. من هذه الأسس الحفريات التي كانت تحدث أحياناً بين خرائب القلاع العربية أو مساكن العرب السابقة واكتشاف جرار من الذهب أو الفضة على شكل حلي وعملات نقدية وتحف فنية الخ.. ويفسر ارفينغ ذلك بقوله: ".. من خلال الحروب بين هذين الشعبين.. كان قدر المدن والقرى تغيير حكامها ومواطنيها أيضاً فجأة. وخلال الهجوم على السكان أو حصارهم كانوا حتماً يدفنون أموالهم ومجوهراتهم في الأرض أو يخفونها في الكهوف أو آبار الماء كما يحصل في أيامنا هذه في بلاد شبيهة في الشرق أثناء الاحتلال

المفاجئ.. على أمل أن يعود النازحون إلى ديارهم ليخرجوا أموالهم وأشياءهم الثمينة.."

من هنا، ربما، نبعت الحكايات والأساطير التي تتحدث عن كنوز الذهب والفضة، الحلي والجواهر التي ما تزال مدفونة تحت التراب، الأمر الذي كان يشغل حيزاً كبيراً من تفكير الناس ويلهب حماستهم دائماً للبحث عن تلك الكنوز ويكفي اكتشاف كنز واحد حتى يبلغ هذا الإلهاب أوجه. مثلاً ذات مرة وجدت في قصر الحمرا – معقل الأساطير التي هي من هذا النوع – جرة بها عملة عربية مع هيكل ديك، مما دفع الكثيرين لأن يعتقدوا أنه دفن مع الجرة حياً. وأرفينغ، في تركيزه على هذا الجانب، يفرد حيزاً كبيراً من كتابه للقصص الحكايات الشعبية التي يبدو أكثرها مسبوكاً سبكاً جيداً إضافة إلى أنه ممتع ومثير للغاية. من بين هذه الحكايات حكايات حب مثل (حكاية الأمير أحمد الكامل أو سائح الحب)، حكاية (وردة الحمراء)، حكاية (برج الطفلات: أو الأميرات الحسناوات الثلاث) وقصص حرب وبطولة كحكاية (المحارب القديم) وحكاية (حرب صليبية لسيد القنطرة العظيم) وحكايات نبل وشهامة، كحكاية (الدون مونيو ساشودي مينو جوسا) وقصص الكنوز والأموال المدفونة وهي كثيرة جداً منها (قصة ميراث عربي) وحكاية (التمثالين الحكيمين) وحكاية (الجندي المسحور) وقد صاغها الكاتب كلها بأسلوب فني مشوق يصل حد السحر والإبهار أحياناً.

لا تقتصر آثار الحضارة العربية على ما ذكرنا من صعد ومجالات فهناك مجالات أخرى لا يسمح لنا ضيق الوقت بالتحدث عنها وهي العلوم، الآداب، المسرح، حتى ملابس الناس وأزياؤهم تأثرت في إسبانيا، إذ أخذ الشعب الإسباني من العرب وعطاهم بحيث صار المجتمعان متقاربين إلى حد كبير، متشابهين في كثير من المظاهر والحياة الاجتماعية. يقول ارفينغ: ".. كان الناس من كافة الطبقات يلبسون عباءة قصيرة تدعى الطيلسان وتشبه ما كان شائعاً ارتداؤه في إسبانيا في القرنين ١٦ و ١٧ وللطيلسان غطاء رأس أو قبعة – أليس هذا هو البرنس المغربي؟.. كما كان الفارس الإسباني يتجهز للحرب بأسلوب قريب جداً من أسلوب الفارس لعربي.. كذلك كانوا يستخدمون عوضاً عن العمامة قبعة صوفية خضراء أو حمراء.. ولعلها من ذلك النوع الذي ما يزال مستخدماً حتى اليوم في المغرب العربي ويعرف باسم القبعة التونسية أو الفاسية..

إذن، حدث نوع من الامتزاج والمحاكاة جعلت سكان الأندلس، عرباً وإسباناً، في وقت من الأوقات أشبه بعدوين حميمين أو صديقين لدودين إن جاز التعبير، ربما كان من الممكن أن يستمرا في التعايش معاً زمناً أطول بكثير لولا التعصب الديني، كما يقول ارفينغ، الذي كان قد أشعل الحروب الصليبية التي استمرت ما ينوف على ٣٠٠ عام.

الخاتمة

لقد أمضى واشنطن أرفينغ سنوات عدة وهو يبحث ويتقصى المسألة التي شغلته طويلاً: أثر الحضارة العربية الثقافي والاجتماعي على إسبانيا وبالتالي على شعوب أمريكا نفسها التي اكتشفها الإسبان وبسطوا سيطرتهم على معظم أصقاعها في أوج قوتهم وعظمة امبراطوريتهم. خلال تلك السنوات زار

الناس، التقى بفقرائهم، نبلائهم، أغنيائهم، رعاعهم.. سمع حكاياتهم وقصصهم، شاركهم مهرجاناتهم وأعيادهم وخرج بانطباعات هامة يمكننا أن نورد بعضها هنا. "الإسبان يحبون دائماً الفخامة والعظمة في أفكارهم المتعلقة بالأسلوب: قصور فخمة، حاشية كبيرة العدد من المرافقين والخدم، بطانة ووصفاء كثر وأتباع من كل الأصناف.. وهذا ولا شك يعود بالأصل إلى الضرورة التي كانت تقضي بالاحتفاظ بجموع كبيرة من الرجال المسلحين خلال الحروب مع العرب.."

ثم ينتقل بعد ذلك إلى تأثير الأناشيد والأغاني في الشعب الإسباني فيقول: "لقد استخدمت (أي الأناشيد والأغاني) على هذا النحو لكي تمارس تأثيرها على شخصية الإنسان التي لم تستطع قرون من الانهيار والتراجع تدميرها، بحيث أن الإسبان رغم عيوبهم الكثيرة، ما يزالون حتى الوقت الحاضر وفي جوانب عديدة أكثر شعوب أوروبا رقي عقل وكبرياء وروح.

صحيح أن رومانسية المشاعر مستمدة من المصادر التي ذكرت (أي المصادر العربية) إلاَّ أن لها مل كل رومانسية أخرى تكلفاتها التي تجعل الإسباني أحياناً.. ميالاً لأن يتجاوز في مسائل الشرف والكرامة، حدود المنطق والعقل، نزاعاً وسط الفقر والعوز لأن يؤثر التمسك بسلوك الفارس العظيم وأن ينظر بازدراء تام إلى المهن اليدوية وكل سبل كسب العيش لدى الطبقات الدنيا من الشعب.."

أليس في هذه الصفات صلة قربى وشيجة مع صفات العربي؟ ألاَّ يذكرك هذا بهجاء الفرزدق لجرير معيراً إياه بأن أباه قين وجده قين أي يشتغل حداداً؟ ألا يغالي العرب في مسألة الشرف والكرامة إلى حد يتجاوز حدود العقل والمنطق؟ أليسوا رومانسيين مثلهم مثل الإسبان؟ يحبون المظاهر والفخامة مثلهم مثل جيرانهم أولئك؟

وفوق هذا وذاك ألا يتميزون كأصدقائهم اللدودين بأنهم من أكثر شعوب الأرض رقي عقل وكبرياء روح؟

إن البحث في أشكال المثاقفة والتأثر والتأثير الاجتماعي بين الشعبين العربي والإسباني لأصعب وأعقد بكثير من أن نحيط به في هذه المداخلة السريعة وبهذه العجالة. لكن خير ما أختم به مداخلتي هذه شهادة باحث عظيم هو الدكتور خوان فيرنيه أستاذ الأدب العربي والتاريخ في جامعة برشلونة إذ يبحث في كتابه (بم تدين الثقافة لعرب إسباني؟) بروح علمية وعقل موضوعي هذه المسألة ويقول فيها الكثير لكننا نقتطف ما يلي:

"كان الغزو العربي لإسبانيا غزوا ثقافياً وفنياً مذهلاً لسرعته واتساعه ومازال يدهش الباحثين، إذ لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم القديم. إنني لا أقصد بكلمة العرب العرق أو الدين، إنما أقصد بها لغة العرب الذين دونوا بها كنوز ثقافتهم ونشروها في إسبانيا كلها إبان وجودهم الطويل فيها وكان يتكلمها الإسبان أنفسهم واليهود وسائر الأقوام الموجودين فيها، إن للغة العربية الفضل الأكبر في نقل العلوم الشرقية القديمة والعلوم الإسبانية إلى اللغتين اللاتينية والقشتالية، وهذا ما كان له أثر كبير في عصر النهضة العربية.."

فهل بعد هذا القول من زيادة لمستزيد..؟!




مُعلَّقة على بوّابات القدس

شعر: محمد منذر لطفي

مهداة إلى مدينة القدس بمناسبة تسميتها

عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٩ مع الإجلال والإكبار

أكـبرتُ صُـبحكِ أن ينـأى.. وإن غربـا
مـا دمـت للمسـلمين القلـبَ.. والعصـبا
يـا قـدسُ.. يـا بلـدَ الإسـراء.. عـاوَدني
شـوقٌ إليـكِ.. إلى الوجـه الـذي احتجبـا
يـا قـدسُ.. يـا قبلـةً هـامَ الضيـاءُ بهـا
يـا مـن أغـرتِ السَّـنا.. والبـدرَ.. والشُّـهُبا
عطـاؤكِ الثّـرُّ..لم تنضـبْ روافـدهُ
ولا الفـداءُ.. ولا حُـبُّ الفِـدا نضـبا
مدينـةٌ.. في ضمير الكـون.. خالـدةٌ
وافـى الزمـانُ ثراهـا.. فـانحنى أدبـا
وراحَ يلـثمُ - في وجـدٍ - أوابـدَها
ويسـتعيدُ جمـالاً راحـلاً.. وصِـبا
هـي المفـاتنُ حُسـناً.. والنـدى كرمـاً
هـي السـلامُ صـفاءً.. والهـوى نسـبا
هـي الشـموخُ إبـاءً.. والعُـلا شممـاً
مـا غـابَ سـيف لهـا في سـاحةٍ.. ونَبـا
أظـلُّ أحمـلُ في جنبيَّ ألـفَ هـوىً
شـادٍ.. لأنـوارِ أقصـاها الـذي عتبـا
مدينـةُ البـذلِ.. لـو مـرَّ العطـاءُ بهـا
يومـاً.. لأكـبر فيهـا البـذلَ.. وانسـحبا







-٢-

يـــا قـــدسُ عفـــوكِ.. إنْ أمسـيتُ مكتئبـــاً
فقـد دنـــا الخطـــبُ منـــكِ اليـــومَ.. واقتربـــا
تخـــاذلَ القـــومُ.ز وا ذُلاَّهُ يـــا بلـــدي
فحـــرتِ مـــا بـين مـــن أغفـــى.. ومـــن شـجَبا
وراحَ يغشـــاكِ ليـــلٌ حالـــكٌ زمنـــاً
مِـــنْ بعـــدِ مـــا كنـــتِ أمـــاً للضُّـحى. وأبـــا
نـــامَ الكفـــاحُ.. فجُـــلُّ السّـــوحِ خاويـــةٌ
إلاّ مـــن الطفـــلِ.. إلاّ مـــن فتـــى وثبـــا
إلاَّ مـــن الصَّـــيدِ.. آســـادِ الحمـــى صَـمَدوا
في ســـاحِ غـــزَّةَ.. كـــانوا في العطـــا سُـحُبا
باسـمِ السـلامِ.. أضـاعوا القـدسَ يـا وطـني
جهـــراً.. أضـــاعوا المغـــاني وانتشـــوا طربـــا
إنَّ الســـلامَ بـــراءٌ مـــن تخـــاذلهم
فاحـــذر ســـلاماً.. يجـــرُّ التّيـــهَ.. والنُّوَبـــا
فراقبـــوا الله في الأوطـــانِ.. واتحـــدوا
بـــالأمسِ "رابـــينُ" ضـــمَّ الأرضَ واغتصـــبا
واليـــومَ إنْ لم تَكفُّـــوا عـــن تنـــازعكم
ففـــي غـــدٍ يعصـــرُ الزيتـــونَ والعنبـــا

-٣-

يـــا قـــدسُ عفـــوكِ.. إنْ أمسـيتُ مكتئبـــاً
فالخطـــبُ داهَمنـــا.. والثـــأر قـــد وجبـــا
يـــا واحـــةَ النـــورِ والإيمـــانِ.. مـــا فعلـــتْ
يـــدُ الغـــزاةِ بأقصـــاكِ.. الـــذي نُكِبـــا..؟
قُصّـــي علـــى الكـــونِ أنَّ الليـــلَ مـــا برحـــتْ
أمواجُـــهُ تحمـــلُ التشـــريدَ.. والنَّصَـــبا







لا بـــــارك الله في قـــــومٍ إذا قعـــــدوا
عـــن الجهـــادِ.. فكـــانوا في الـــوغى حطبـــا
وبـــــارك الله في قـــــومٍ مضـــوا قُـــدُماً
إلى الجهـــادِ.. فكـــانوا السَّـــادةَ.. النُجُبـــا
والله لم يغـــزَ قـــــومٌ في ديـــــارهم
إلاّ غـــدوا تبعـــاً.. إلاّ غـــدوا ذنبـــا
صـــدقت يـــا فـــارسَ الهيجـــا.. وسـيِّدها
فقولُـــكَ الفصـــلُ.. يجلـــو الشـــكَّ والرّيبـــا
صـــدقتَ والله يـــا بـــن الأكـــرمينَ أبـــاً
إمّـــا دهـــا الخطـــبُ.. أشـــباهُ الرجـــالِ هبـــا
هـــا هـــم وقـــد ملـــؤوا الســـاحاتِ يـــا وطـــني
والســـيفُ نـــامَ طـــويلاً.. بعـــدما صُـــلبا
فعـــادَ للغمـــدِ زهـــوٌ مشـــرقٌ.. ألـــقٌ
وللحمائـــلِ كـــبرٌ أدهـــشَ الكُتُبـــا
فيـــا "علـــيٌّ" أعرنـــا "ذا الفقـــار".. فقـــد
أضـــحت بواترُنـــا - يـــا ســـيِّدي - خشـــبا

-٤-

يـــا قـــدسُ يـــا قبلـــةَ الأديـــان.. قاطبـــةً
ويـــا منـــاراً.. يـــزفُّ العلـــم والأدبـــا
كنيســـةُ المهـــدِ والأقصـــى.. وصـــخرته
تظـــلُّ للضـــوءِ نبعـــاً.. والشَّـــذا نســـبا
كنّـــا وكانـــت لنـــا الـــدنيا مواتيـــةً
فســـائلِ الـــدهر والأمجـــادَ.. والكُتبـــا
أيـــام فـــرَّ هرقـــلُ الـــرومِ.. منـــدحراً
مـــن بأســـنا.. مـــن خيـــولِ الفـــتح.. وانســـحبا







واليــومَ مــاذا أرى؟ والقــومُ في شُــغُلٍ
عــن الكفــاحِ.. ووجــهُ الأمَّــةِ اضــطربا
مــاذا جــرى لــبني قــومي..؟ وأغربُــهُ
أنَّ الكفــاحَ غــدا في عــرفهم خُطبــا
مضــوا إلى السِّــلمِ.. في تيــهٍ.. وفي عجــبٍ
فصــحتُ مــن هــولِ مــا أبصــرتُ: وا عجبــا
كــأنَّ تشــرينَ مــا هلَّــت بشــائرُهُ
إلاّ لتــذهبَ في بحــرِ الخــلافِ هبــا
تشــرينُ كــان لنــا درعــاً نلــوذُ بــه
مــا كــان تشــرينُ في ســاحاتنا لُعَبــا
قــد رحــتُ أُكبِــرُهُ بــالأمسِ مُبتســماً
وكــدْتُ أنســاهُ هــذا اليــومَ مُكْتَئبــا
"فقدسُــنا" اليــومَ أوصــالٌ ممزَّقــةٌ
قــد شــيَّدَ الليــلُ في أرجائهــا قِبَبــا
وراحَ يختــالُ في كــبرٍ.. وفي صَــلَفٍ
ويقلــعُ الأهــلَ منهــا.. يــزرعُ الغُربــا
فخلِّصــوا "القــدسَ" مــن آلامِ غُربتهــا
وأنقــذوا الأرضَ.. والإســلامَ.. والعربــا

-٥-

يــا ثــورةً في ضــميرِ الشعــبِ خالــدةً
لــيحفظ الله مــن أبلــى.. ومــن ضــربا
أنــتِ الضــياءُ.. وقــد غابــتْ كواكبُنــا
إنّــا عهــدناكِ - إمّــا أظلمــتْ - شُــهُبا
أطفالُــكِ الصِّــيدُ مــا كَلُّــوا.. ولا وَهَنــوا
وكيــفَ يرضــى الــدُّجى مــنْ بالسَّــنا رَغِبــا..؟



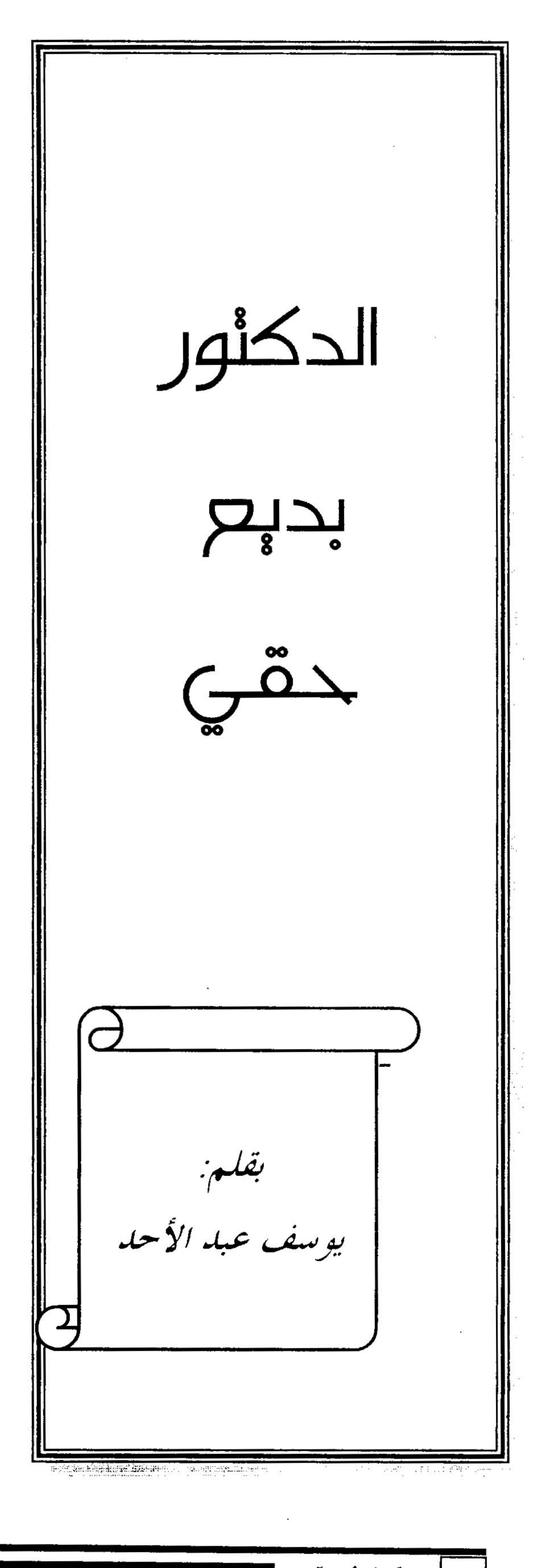



فثـــورةُ "الحجـــرِ القُدســـيّ" شـــاهدةٌ
أنّ الطفولـــةَ أمضـــى هِمّـــةً.. وإبـــا
لا يُرجِـعُ "القـدسَ" إلاَّ السَّـاحُ يـا وطـني
فجـــرِّدِ الماضـــيينِ.. الســيفَ.. والغَضَـــبا
إنّـــا نريـــدُ ســـلاماً.. يحفـــظُ العَربَـــا
ولا نريـــدُ ســـلاماً.. يحمـــلُ العَطبـــا
فـــنحنُ شـــعبٌ تحـــدَّى كـــلَّ مُغتصـــبٍ
شـــعبٌ.. لغـــيرِ العُـــلا والمجـــد مـــا انتســـبا

-٦-

يـــا "قـــدسُ".. يـــا حُلُمـــاً أغفـــى علـــى حُلُـــمٍ
الســـحرُ قَبَّـــلَ منـــكِ الثغـــرَ والهُـــدُبا
يرنـــو الجمـــالُ إلى عينيـــكِ في عجـــبٍ
ويكـــتُمُ الغَيْـــرَةَ العميـــاءَ.. والعجبـــا
زرعـــتُ حبَّـــكِ في روحـــي.. وفي قلمـــي
فأشـــعل الشـــوقَ في قلـــب.. غـــداةَ صَـــبا
ســـقيتني الكـــأسَ ضـــوءاً.. زانـــهُ حبـــبٌ
واليـــومَ شـــعري يـــردُّ الكـــأسَ والحَببـــا
يـــا "قـــدسُ".. يـــا جنَّـــةَ الـــدنيا.. وبهجتَهـــا
جعلـــتُ مجـــدكِ - يـــومَ الفخـــرِ - مُنتَسَـــبا
تـــبقينَ - رغـــمَ النـــوى والقيـــد - قِبلتنـــا
شمســـاً.. تُضـــيءُ كتـــابَ المجـــدِ والحِقبـــا
فـــإنَّ صـــبحاً.. ســـيجلو رانَ أمَّتنـــا
يومـــاً ويرجـــعُ وجهـــاً كـــان محتجبـــا
مدينـــةٌ.. في ضـــميرِ الكـــونِ خالـــدةٌ
وافـــى الزمـــان ثراهـــا.. فـــانحنى أدبـــا



رائد من رواد الشعر الرمزي العربي وروائي متميز بجمال أسلوبه وأناقة لفظه، يجمع بين الثقافتين العربية والأجنبية.

ولد بدمشق في السادس والعشرين من حزيران عام ١٩٢٠ فقد والده وعمره أربع سنوات فسهرت أمه على تربيته ورعاية طفولته.

تلقى دراسته الابتدائية في مدرسة البحصة ثم تابع دراسته في مدرسة التجهيز حيث نال شهادة البكالوريا الثانية – الفلسفة – ثم انتسب إلى معهد الحقوق ونال الإجازة منه عام ١٩٤٤ ثم تابع دراسته في جامعة السوربون في باريس ونال شهادة الدكتوراه في الحقوق الدولية عام ١٩٥٠ وكان موضوع أطروحته عن (قضية فلسطين).

بدأ بكتابة الشعر وصدر ديوانه الوحيد (سحر) عام ١٩٥٣ عن دار مجلة الأديب لصاحبها ألبير أديب (١٩٠٨ – ١٩٨٥) وكتب عنه النقاد آنذاك: "إنه شاعر ينتمي إلى المدرسة الرمزية وإيقاع موسيقاها بأبعد مما تدل عليه ألفاظ القصائد مجردة".

ثم هجر الشعر وانصرف إلى كتابة القصة والرواية والمقالة والترجمة باعتباره يتقن ثلاث لغات هي العربية والفرنسية والإنكليزية.

واعتنى بترجمة أعمال شاعر الهند الأكبر رابندرانات طاغور وهمنغواي وغوغول

وغيرهم، وترجمت بعض رواياته وقصصه إلى عدة لغات أجنبية.

انتسب في عام ١٩٤٥ إلى السلك الدبلوماسي وعمل سفيراً ووزيراً مفوضاً في كل من برن وموسكو وباريس وبغداد واستنبول وكابول والجزائر وكوناكري ومقاديشو وظل فيها إلى أن أحيل إلى التقاعد عام ١٩٨٦.

فاز كتابه (التراب الحزين) وهو مجموعة قصص عن فلسطين بجائزة الدولة للقصة عام ١٩٦١ وأقر تدريسه في المدارس الثانوية بدمشق عام ١٩٦٥ وبهذه المناسبة أقام له اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ندوة تكريمية بتاريخ ٢٩/ ٨/ ١٩٩٤ تقديراً لإسهامه في دعم قضية فلسطين.

كما أقامت له إدارة مجلة الثقافة لمؤسسها مدحة عكاش حفلاً تكريمياً في مكتبة الأسد وبرعاية السيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة السابقة بتاريخ ٢٧/ ١١/ ١٩٩٤ تقديراً لأعماله الإبداعية، ونال وسام الاستحقاق من الرئيس أحمد سيكوتوري.

وفاته

تدهورت صحته في السنوات الأخيرة من حياته وأصابه مرض القلب وانقطع عن الكتابة نهائياً وكانت زوجته تعتني به لدرجة كبيرة إلى أن توقف قلبه عن الخفقان في الثالث والعشرين من كانون الثاني عام ٢٠٠٠ وبرحيله خسر الأدب علماً كبيراً من أعلامه الذي أغنى المكتبة العربية بطائفة من مؤلفاته وترجماته الإبداعية.

آثاره المطبوعة

١- سحر – شعر – ١٩٥٤ بيروت.
٢- التراب الحزين – قصص – ١٩٦٠.
٣- جفون تسحق الصور – رواية – ١٩٦٨.
٤- أحلام على الرصيف المجروح – رواية – ١٩٧٣.
٥- قمم في الأدب العالمي – دراسات – ١٩٧٣.
٦- حين تتمزق الظلال – قصص – ١٩٨٠.
٧- الشجرة التي غرستها أمي – سيرة – ١٩٨٦.
٨- حين يورق الحجر – مقالات ١٩٩٠.
٩- قوس قزح فوق بيت ساحور – قصص – ١٩٩٣.
١٠-همسات العكازة المسكينة – رواية – ١٩٨٧.
١١-جمرة الحرف وخمرة النغم – مقالات – ١٩٩٣




عشق..

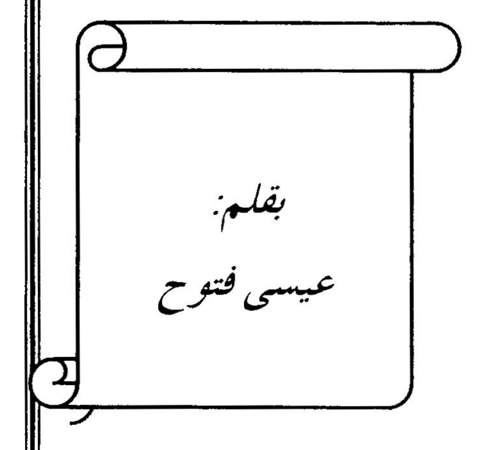
شعر: علي الحبيب

يـا منيـة الـروح هـل تخشـين شـنآنا
أمْ إنّـهُ الغِـنْجُ كـي تُكْـوى حنايانـا
بـالأمس كنـتِ إذا ناديـتُ مـن ولـهٍ
حبّـاً أجبـتِ، فـداكَ الـروح مولانـا
إنّـي لأرجـو بُعيـد البين أن تَصـلي
حبّـاً يسـفر في ذكـراك نشـوانا
يهفـو وحمّـى الهـوى تلـهو بمهجتـهِ
والقلـب منـه تنـاجي الطيـف ولهانـا
هـذي مـذاهب أهـل العشـق مـا فتئـتْ
تُلقـي علـيهم مِـنَ الآلام ألوانـا
لكـنّهم طمعـاً عاشـوا بإمرتهـا
حتـى استحالتْ علـى العشاق سـلطانا
يـا منيـة الـروح لـيس العين من عشقت
(فالقلـب يعشـق قبـل العـين أحيانـا)
آهٍ مـن الحـبّ مـن إنسـيةٍ أسـرتْ
منّـي فـؤاداً لغـير الحـب مـا لانـا
حـوراء تختـالُ شـبه الـريم، أفزعهـا
إنـسٌ يراقـب بـين الأيـك غزلانـا
حسـن النسـاء ومـا بالحسـن مـن ألـق
فيهـا تجلّـى ومـن إشـراقها ازدانـا
البعـد عنهـا إذا مـا طـالَ يجعلـني
أمشـي علـيلاً وطـول الوقـت حيرانـا
والقـرب منهـا نعـيم عشـت طرحتـهُ
لمـا ابْتـدأنا ببـوح الوجْـد لُقْيانـا
فـارْجعْ مليـك الحشـا، إرْجـعْ لتخبرنـي
أنّ الفـراق انتهـى مـا دُمْـتَ تَهوانـا




الدكتور شاكر الفحام

١٩٢١ - ٢٠٠٨



نعى مجمع اللغة العربية بدمشق رئيسه الأستاذ د. شاكر الفحام الذي وافته المنية يوم السبت في ٢٨/ ٦/ ٢٠٠٨ عن ٨٧ عاما بعد أن حال المرض بينه وبين حضور اجتماعات المجمع في الفترة الأخيرة.

وقد رأيت أجلو سيرة حياته، وأتوقف عند شخصيته العلمية الرصينة، واضطلاعه بمهام التدريس في كلية الآداب بجامعة دمشق، ورئاسته المجمع والموسوعة العربية الكبرى، فقد كان علاّمة دؤوباً ومثابراً يصل ليله بنهاره ونهاره بليله، باحثاً منقباً، عاكفاً على العمل، دون أن يثنيه اضطراب نبضات قلبه عن مواصلة مسيرته العلمية والفكرية والإدارية.

كان عام ١٩٨٨ - ١٩٨٩ عام الفوز بالجوائز الأدبية والإعلان عنها في سورية، فبعد أن فاز الأديب والكاتب المسرحي د. علي عقلة عرسان - رئيس اتحاد الكتاب العرب - بجائزة ابن سينا الدولية - فاز الدكتور شاكر الفحام -رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق - بجائزة الملك فيصل، وكان فوزهما حافزاً لأن يعلن اتحاد الكتاب العرب ولأول مرة في تاريخ سورية عن إنشاء جائزة تقديرية بدءاً من عام ١٩٨٩ تتكون من ميدالية وبراءة تقدير، ومبلغ قدره مئة ألف ليرة سورية، وجائزتين تشجيعيتين بدءاً من عام ١٩٩٠ تتكون كل منهما من وثيقة رسمية، ومبلغ قدره خمسة وعشرون ألف ليرة سورية لكل واحدة منهما.

* * *

قد لا يعرف القراء الكثير عن حياة الأستاذ الدكتور شاكر محمد الفحام وسيرته الذاتية، وشخصيته العلمية الرصينة،

واضطلاعه بمهام التدريس في كلية الآداب بجامعة دمشق، والكتابة في مجلة مجمع اللغة العربية، ومجلة دراسات تاريخية.. ورئاسة (الموسوعة العربية) في دمشق.. لذلك رأيت أن أجلو جانباً من نشاط هذا العلامة الدؤوب الذي يصل نهاره بليله، وليله بنهاره، باحثاً، منقباً، عاكفاً على العمل، لا يثنيه عن متابعة هذه الجهود اضطراب قلبه الخفاق، المثقل بشتى الأعباء الإدارية والعلمية.

* * *

ولد الدكتور شاكر بن محمد الفحام في مدينة حمص عام ١٩٢١، تلك المدينة التي تتوسط سورية، وتتمتع بنسمات البحر المتوسط، لوقوعها بين جبال لبنان الشمالي، وسلسلة جبال اللاذقية، وتقع على نهر العاصي الذي أكسبها الخضرة والجمال والطبيعة الخيرة، وترعرع في بيئة دينية محافظة، وأسرة عرفت بالتفقه والتدين والصلاح، فشب متمسكاً بآداب دينه، وأخلاق قومه، وقد تلقى دروسه الابتدائية وبعض الثانوية في مدارس حمص الرسمية ثم تحول إلى دمشق ليستكمل الدراسة الثانوية فيها، فلما فرغ منها عين عام ١٩٤١ معلماً مؤقتاً في قرية من قرى الجولان اسمها (تسيل) ثم أوفد إلى القاهرة لدراسة الأدب العربي في جامعتها، فلما نال الإجازة عاد إلى سورية، وطفق يدرس اللغة العربية في ثانويات دمشق وحمص والحسكة، ثم توجه مرة أخرى إلى القاهرة عام ١٩٥٧ لاستكمال دراسته الجامعية العليا، فاختار شاعرين من شعراء البصرة موضوعاً لرسالته في الماجستير والدكتوراه، جاءت أولاهما عن بشار بن برد في ٤٤٠ صفحة أحاطت بكل ما يمكن أن يقال عن هذا الشاعر المجدد، وجاءت الثانية عن الفرزدق في ٤٠٠ صفحة، لم يترك فيها زيادة لمستزيد في الحديث عن هذا الشاعر الفحل، وستمضي السنون تلو السنين قبل أن يضيف البحث العلمي شيئاً ذا بال إلى ما جاء به في هاتين الرسالتين، ولعل اختياره في البدء هذين الشاعرين يجلو لنا إيمانه بوجوب العودة إلى الجذور الأصيلة في آدابنا وإيثاره المنابع الصافية الثرة في تراثنا العربي.

وبعد عودته من القاهرة سمي عام ١٩٦٢ مدرساً للعربية في كلية الآداب بجامعة دمشق، وكان عمله هذا أحب الأعمال إليه، وأرضاها لنفسه، وأقربها إلى هواه، لكنه لم يلبث أن بُعث سفيراً إلى الجزائر، حيث أقام حوالي أربع سنوات ١٩٦٤ - ١٩٦٨ وطّد خلالها العلاقة ودعائم المودة والمحبة بين القطرين العربيين سورية والجزائر، وعقد وشائج الصداقة بين رجالاتهما، فلما عاد سنة ١٩٦٨ إلى دمشق، اختير رئيساً لجامعتها ١٩٦٨ - ١٩٧٠ وانتخبه أعضاء مجمع اللغة العربية نائباً لرئيسه الدكتور حسني سبح، ثم رئيساً للمجمع.

شغل منصب وزير التربية لأول مرة عام ١٩٦٣، وفي عام ١٩٧٠ - ١٩٧٣ شغل منصب وزير التعليم العالي، وفي عام ١٩٧٣ أصبح وزيراً للتربية مرة ثانية، ومنذ عام ١٩٧٨ عاد مرة أخرى وزيراً للتعليم العالي، إلى جانب قيامه بالتدريس في كلية الآداب.

لكن هذه المناصب الرفيعة التي تسلمها، وما تقتضيه من مشاغل مضنية متعبة لم تصرفه عن هواه الأول: البحث والمطالعة وخدمة العربية، فهو سفير في الجزائر، ومع

ذلك يتابع العناية بالفرزدق، ويضع مقدمة ضافية وافية لديوانه الذي نشره مجمع اللغة العربية بدمشق مصوراً عام ١٩٦٥، وهو وزير للتعليم العالي، وينشر في مجلة المجمع كتاب (اللامات) ويترجم لمؤلفه أبي الحسين أحمد بن فارس، ويتحدث عمّا ألف في اللامات قبله، وعن شيوخ المؤلف في نمط من البحث معجب محكم فريد، ويعمل - وهو وزير للتربية - على تحقيق أمنية طالما رنا المجمع إلى إنجازها، ألاّ وهي نشر كتاب (الدلائل في غريب الحديث) لأبي محمد قاسم بن ثابت العوفي السرقسطي، الذي كان الأستاذ عز الدين التنوخي قد عقد العزم على نشره، ولكن لم يف بما أزمعه، فيأتي الدكتور الفحام وينشر في مجلة المجمع دراسة وافية في الموضوع، يستهلها بالكلام على كتب الغريب، قبل كتاب العوفي، وكيف نشأ علم غريب الحديث، ومن هم فرسانه المجلون.

إذا ما استحق الدكتور شاكر الفحام جائزة الملك فيصل، فلأنه واحد من أولئك العلماء النابهين الذين شغفوا بتراثنا العربي وأحبوه وهاموا به، وأطالوا الوقوف عنده، ولا سيما بشار بن برد الذي بدأت صحبته معه ومع ديوانه منذ عام ١٩٥٨، حين اختاره موضوعاً لدراسته العليا كما أسلفنا.

وقفة مع كتابه (نظرات في شعر بشار بن برد)

صدر هذا الكتاب عن مجمع اللغة العربية في دمشق عام ١٩٨٤، وقد علق فيه على تحقيق ديوان بشار بن برد الذي قام به الطاهر بن عاشور شيخ جامع الزيتونة في تونس، إذ حفل هذا التحقيق بعدد لا يستهان به من الأخطاء، بسبب التصحيف والتحريف وجهل النساخ.

وعلى الرغم مما بذله الطاهر بن عاشور من جهد مشكور في تحقيق هذا الديوان ومما قام به صاحباه الأستاذان محمد رفعت فتح الله، ومحمد شوقي أمين من مراجعة وتهذيب، فما زال الديوان يفتقر إلى تضافر العلماء ليضطلعوا بتحقيقه على الوجه الأكمل، ويقوّموا عوجه، ويمسحوا الهنات عن وجهه، ويعيدوا إليه رونقه، فالتركة ثقيلة - كما يقول المؤلف - والعبء مرهق.

قلنا إن الدكتور الفحام بدأ يتعامل مع ديوان بشار منذ أن كان طالباً في جامعة القاهرة، فقرأ الديوان قراءة متأنية بطيئة مطمئنة، وعلق على حواشيه، ونبه إلى كل موضع بدا له فيه أن المحقق جانب الصواب، ثم جمع قسماً من هذه التعليقات الدقيقة في رسالة بعنوان (شعر بشار بن برد)، قدمها إلى كلية الآداب في جامعة القاهرة عام ١٩٥٩، ثم شغلته صوارف الزمن، وأعباء العمل الوزاري عن التفرغ إليها، ولما آب من رحلته الطويلة مع هذا العمل، فك أسر رسالة بشار المخطوطة، وتخير منها كتاب (نظرات في شعر بشار) وكانت مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق قد نشرتها مجزأة في المجلدين ٥٣ و٥٤، ثم أشار عليه أصدقاؤه بجمعها ففعل.

لقد نقّح الدكتور الفحّام في هذا الكتاب عدداً كبيراً من أشعار بشار بن برد التي وردت في الديوان، وبذل كل ما في وسعه من جهود لضبطها خدمة للعربية، وتيسيراً للواردين

مناهلها الثرة الغزيرة، فرجح قراءة كثير من الأبيات بشكل يخالف ما اتجه إليه المحقق والمراجعان، وفسرها تفسيراً رآه أقرب إلى مراد الشاعر، وألصق بمذهبه، وأطال الوقوف بأبواب القوافي، دون أن يزعم أن ما ذهب إليه ورجحه من قراءة أو تفسير هو الراجح، وإنما هو ما أداه إليه اجتهاده، ودون أن يقطع بيقين، وهو يعلم أن جهده هو جهد المقل، وليست هذه النظرات لتعقب هفوات الطاهر بن عاشور، فقد قدم من العمل ما يوسع العذر، ولكن لاستكمال عمله الرائد، وخدمة للعربية التي يعمل كل العرب لخدمتها ونشر كنوزها الدفينة على الوجه الأكمل.

وإذا كان الطاهر بن عاشور لم يبلغ ذروة الكمال في التحقيق، وسها عن بعض الهفوات فالسبب يعود إلى ما شاع في المخطوطة الوحيدة في العالم من التصحيف والتحريف والغلط في الكتابة، وأخطاء النساخ مشهورة عند محققي التراث والمتعاملين معه، وحسب الطاهر بن عاشور أنه كان أول من حقق شعر بشار بمفرده، وتحمل وحده عبء هذا العمل الجليل.

لكن ما يؤسف له أن ديوان بشار طبع طبعة جديدة عام ١٩٧٦ في أربعة أجزاء، شارك في إخراجها تونس والجزائر، والتزمت هذه الطبعة بقراءة النصوص كما جاءت في طبعة بن عاشور، ولم تغير فيها إلاّ في مواضع قليلة معدودة، وهذا ما أثار حماسة الدكتور الفحام، ودفعه برغبة إلى إعادة النظر في تعليقاته القديمة على ديوان بشار، ونشرها في هذا الكتاب الذي بلغت صفحاته مع المراجع مئتي صفحة، وكل أمله أن يحظى الديوان بطبعة ثالثة ينهض بأعباء تصحيحها عالم فذ يأخذ تصحيحاته في هذا الكتاب بعين الاعتبار، ويعود إلى المخطوطة الأصلية، أو إلى صورة عنها، فهي كما اشرنا تعج بالتصحيف. ذلك أن المحقق الطاهر بن عاشور على الرغم من عمله وإخلاصه وجهده أشكل عليه قراءة الكثير من الكلمات، ولم يستطع فهم خط الناسخ أحياناً فجار عن القصد، إذ لكل ناسخ طريقته في الكتابة والخط، وهو على يقين بأن العودة إلى المخطوطة حين التحقيق تأتي بنتائج طيبة وخير وفير، فهي تفتح أبواباً مازالت موصدة، وتهدينا إلى تصحيفات وتحريفات لم تكشف مغاليقها بعد.

* * *

ليس الدكتور شاكر الفحام رجل علم وبحث وإدارة، فحسب بل هو أديب رفيع الذوق، ومدرسة فريدة في إشراق أسلوبه، وجمال ديباجته، وإحكام نسجه، وعذوبة بيانه، وسلامة طبعه، وكمثال على ذلك أسوق وصفه لانسياح القبائل العربية من جزيرتها في الأرض: "تعلي كلمة الله، وتبشر بالهدى ودين الحق، وقد يُسر لها الفتح، ورُزقت النصر، فاستوطنت الحواضر، ونزلت المدن، ورابطت في الثغور، تثبت دعائم الإسلام، وتنشر تعاليمه، وتقيم في منازلها الجديدة حياة تلائم ما دعت إليه ونادت به، فإذا العرب يملؤون البلاد ما بين أقصى خراسان إلى أفريقية، ليكونوا القوامين على الدعوة التي ائتمنوا عليها.. وإذا هم في الدار الواحدة أخوة يجمعهم الإسلام، وتظلهم رايته، ويحميهم شرعه، وإن المرء ليبهر لهذه المقدرة الفائقة التي قاد بها الخلفاء الأولون حركة الفتوح".



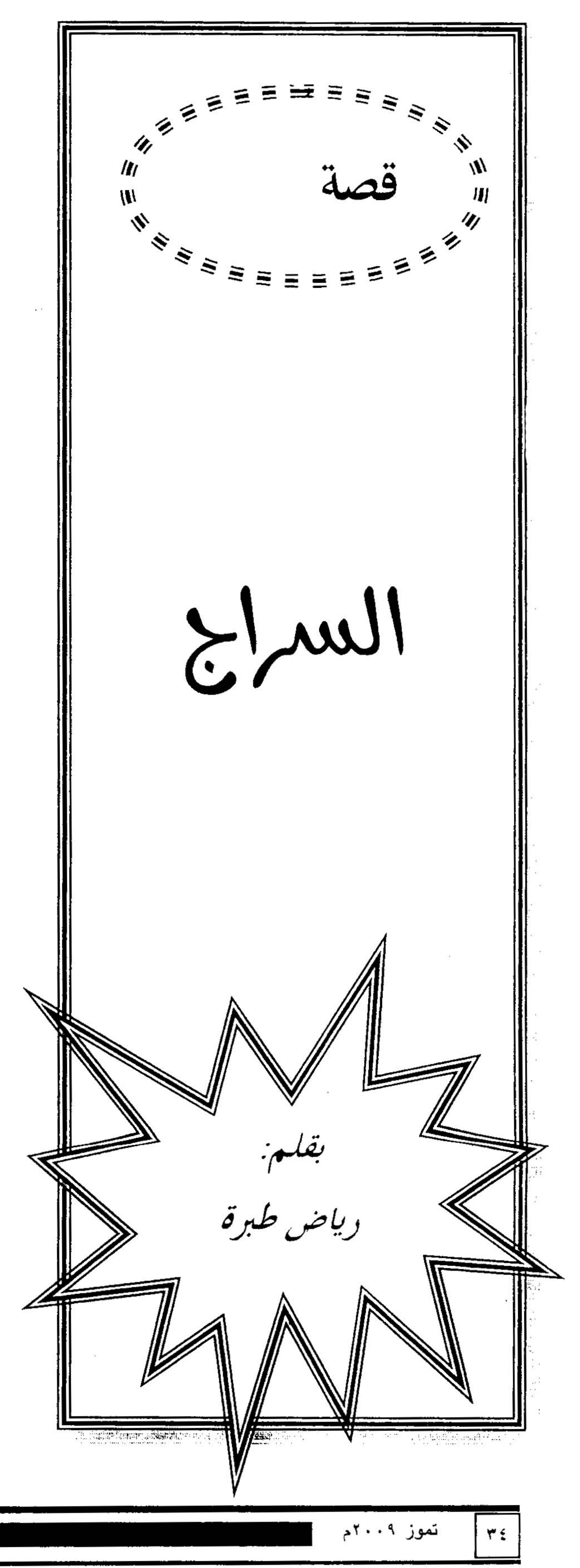

صفاء الروح..

شعر: خالد سرحان الفهد

إلى أبي النواس

مــا بعــد لثمــي أغــدقت بنميرهــا
وهممــتُ يــوم عجــزتُ عــن تفســيرها
قبلتُهــا خُــدِّرتُ، لــيس بمثيلِهــا
أبــداً، ولــيس أجَــلَّ مــن تخــديرِها
حســناءُ فاحشــةُ الفجــورِ كأنمــا
تــومي إلى مــن لا يــرى بحريرِهــا
عبَّــرتُ عــن ولعــي وكــان قوامُهــا
المطــواعُ لانَ ونمَّ عــن تعبيرِهــا
مــن كــلِّ فاتنــةٍ بهــا، فكأنهــا
مَــنْ شــئتَ، يــومَ وردتَ مــاءَ غــديرِها
حرَّرتُهــا جســداً وطــار صــوابُها
فكأنمــا أســرفتُ في تحريرِهــا
وأبــانَ عورَتَهــا الصــباحُ
وقــد أتــى يوشــي بــذاكَ قتيلُهــا لأثيرِهــا
قُتلــتْ، ومُــتُّ، مــن الرجــاءِ، ولم أمُــتْ
إلاَّ لأن المــوتَ دونَ ســريرِها



كان كمن يبحث عن شيء افتقده، لم يألُ جهداً كي يعثر عليه، واصل الليل بالنهار، تبدّل سلوكه كلياً، لم يعد أبو معروف كما كان، أمنه وسلامه الداخليان صارا إلى قلق بفعل فاعل.. عراضاته في الرسم الغربي تلاشت، لم تعد تعبّر عن فتوته وشبابه وتصديه للمظالم..

بين عشية وضحاها تولّدت أسئلة كثيرة عن سرّ التحول في حياة هذا الرجل...

البدايات كانت ردة فعل على صفعة متجبر، لم يرضها الفتى لنفسه، تمرّد، جمع حوله سربة من الأتراب لا تخشى على شيء، هي بالأصل لا تملك شيئاً تخشى عليه..

أخذ يمشي مشيته العسكرية التي تدرب عليها على وقع قرعات الطبل المتوالية.

مال إلى الحركة العنيفة بداية، ثم صارت تأخذ شيئاً من المزاح، لكنها ليست بعيدة عن ابتسامة أسد يتحفز لاستعادة كرامته..

أدرك المتجبّر أن أبا معروف يطلب الثأر، فتراجع بحكمة، ومال إلى المسالمة حتى إذا تمكن من تشتيت الجمع عاد إلى جبروته.

هل كان ذلك وراء التحوّل؟!.

منذ ذلك اليوم، وما إن تأخذ الشمس بلملمة ما تبقى من نهارات ذاك الرسم، ويأخذ الليل، يرخي سدوله بقوة على سفوح هضابها، وما امتد من سهولها، حتى يسارع أبو معروف إلى سراجه فيوقده، ويتأبطه، كل عشية، كعشيقة تاقت نفسها لهواء عليل، ومساء مؤنس، يجدد الحلم الجميل.. ولا ينسى أن يربطه إلى عصاه، في وضعية لا تخلو من غرابة..

وكالعادة، في تلك المساءات، تكرر الألسنة الاستفسارات ذاتها، بين غمز ولمز...

- عمن يبحث أبو معروف؟ أعن غزالته التي شردت؟ أم عن قطعان الماشية التي ربما يحلم بها؟ أم عن بقراته وعجوله المسمنة، وهو الذي لم يهشْ يوماً بعصاه على شاة، أو ينده على بعير، أو كرّ صغير؟.

وهو الذي امتهن الكفاف، وتدّبر شؤون حياته بشهامة ورجولة دون أن يسأل أحداً، كان حقاً ذاك الجواد الشجاع صاحب الحضور البهي.. كل ذلك لا يمنع ألسنة أهالي الرسم، من الاستخفاف بمن يخرج عن مألوف عاداتهم، وتقاليد خنوعهم،

فكيف برجل عزف فجأة عن ماضيه، وراح يصنع حاضراً مختلفاً.. وينهج نهجاً لم يألفه الناس من قبل، ولم يقوَ على تفسيره أولئك الذين يمقتون كل جديد، حتى لو جاء هذا الجديد (من أصدق الناس وأعزهم على قلوبهم).

بداية، ظنوا أنه إنما يحمل سراجه بحثاً عن شيء افتقده، أو أراد تلمس درب يودُّ ألاّ يتعثر فيه، ولا يعود إلاّ مع خيوط الفجر، وقد تلاشت أضواء سراجه قبل أن يجدد الزيت دورة الحياة فيه، فيركن أبو معروف وقد خطّ التعب رحاله، وصارت الراحة متعة لا بد منها، وصارت لقمة - كيفما كانت - تبعث على الحركة وتجدد النشاط.

ينتهي مساء أبي معروف، ولا تنتهي أسئلة كثيرة متجددة من حوله، عن جدوى هذا السراج، وهو الرجل الذي لم يخشَ الليل يوماً ما، إنه فارس الليل بكل اقتدار وكفاءة.

فماذا يضيف له هذا السراج، الذي ينضب فيه الزيت، ويذوي الذبال رخواً أسود الوجه حزيناً، يكاد يعلن موته كل ليلة بلسان مبين...؟!..

-٢-

في اليوم التالي يسارع أبو معروف إلى سراجه، قبل أن تأخذ الشمس بإلقاء خيوطها الذهبية، صافية نقية، كأنما تبشر، ليس بولادة يوم جديد كعادتها، بل بيوم يحمل خيراً. الرسم بات قانعاً بأقل أفعال الخير، وربما تمنى لو مرّ يومه الجديد دون فجيعة في البهائم، أو المزروعات، مع التسليم بأن الموت - موت الإنسان - حق.

والفجيعة في الرسم أن يصحو أحدهم على سرقة شاة، أو حمل، لم تتم رضاعته، أو فقدان مؤونة تدبرها بجهد جاهد، أو خسارة بساط كدّت العائلة كلها في حياكته.

فإن نجا من ذلك كله وظلت أحياؤه وأشياؤه على حالها حمد الله وشكر...

يواصل أبو معروف مشواره ويمشي، تفضح خطواته لهفة من نوع جديد، لم يكن أهل الرسم يلحظونها من قبل، إنه كمن أضاع كلّ شيء، تراه يدقق مع أن الشمس ساطعة ونظره حاد، ويرمق ويبطئ ويسارع، يتجه إلى اليمين ثم إلى اليسار ثم يتابع، وسراجه مازال باهتاً، في نهار لا يأبه لمثل هذا البصيص، الصادر عن هكذا زيت أو هكذا سراج.

مع ذلك يصرٌّ أبو معروف على حمل هذا السراج، في هذه النهارات الأكثر إضاءة من الإشعاع المعروف في نهارات الناس عامة، إنها نهارات صافية في عزّ الصيف.. وما إن تكرر ذلك حتى امتدت ألسنة تمرّست في الغيبة والنميمة، ترمي أبا معروف بجنون العظمة تارة، وبالجنون الموصوف تارة أخرى.

أقلُّ ما قالته تلك الألسنة:

إنه يقلد ذاك الفيلسوف.. وهذه أمارة من أمارات الخبل..

فريقان عجزا عن السؤال..

فريق لم يكلف نفسه هذا العناء..

وآخر لم يجرؤ على مفاتحة أبي معروف، وسؤاله عن سر فعلته هذه أو تلك، حتى بعد أن لاحظوا أنه لم يعد يكتفِ بالتعامل مع الصباح على أنه صباح، ولا مع المساء على أنه مساء..

-٣-

في اليوم الثالث، شاهدوا أبا معروف يحمل سراجه، ويسير في أوج الظهيرة، حيث الشمس تقصف الأرض بأشعتها، لا تفرق بين بشر أو حجر..

هنا في الرسم، يكاد يتخفى الناس كلهم، تحت أمتار من التراب هي أسطح منازلهم..

تكرّرت الرؤية على هذا النحو، تكرّست مقولة في الرسم مفادها، أن أبا معروف لا يبحث عن أمر ضائع، في الليل أو في النهار، إنه يبحث عن شيء لا تحتاج رؤيته إلى سراج، وأنّ في هذا السراج سرَّ أبي معروف.

-٤-

أمس عزم، من شق عليه حال أبي معروف، على مفاتحته في الأمر.

تناوب على الحديث أكثر من واحد..

بعضهم تلعثم وبعضهم أفصح..

منهم من ذكرَّ أبا معروف بماضيه الذي يبعث على الفخر والاعتزاز، بمجد البطولة والرجولة والشهامة، وهو أحد أهم رجالات الجنوب الذي يرفض الضيم ويواجه الظلم..

ومنهم من ذكره بما كان ينفقه على القريب والغريب، كلّما تمكن من كسب شيء يعين الناس على مواصلة الحياة..

ومنهم من ذكرَّه بأيام الصبا والجمال حيث الكلمة النقية، والنغم الحزين، وبالعفو عن اقتدار، وبشهامة تليق بالعاشق المعنّى..

تراقص الدمع في عيني أبي معروف، وصار له قوس قزح.. فرّت نظرات إلى الشرق حيث انبعاث الشمس من جديد..

-٥-

مع ذلك جرت أكثر من محاولة لانتزاع السراج من يد أبي معروف دون جدوى.. وكلّما أصروا على ذلك، كان تصميمه يزداد، ويتواصل إلى التوحد مع السراج..

بعض تلك المحاولات اعتمدت على استغفال أبي معروف، لكنّها أخفقت في مسعاها وظلّ سراجه بيده.

بعضها الآخر لم يصل إلى استخدام القوة، وإن فكّر بها، لكنّ صورة أبي معروف التي ترسخت في أذهان الرسم الغربي، لم تكن تأذن لتلك الأفكار أن ترى النور، إذ سرعان ما تتبدد وتذوب كما يذوب الشمع من أمام وجه النار.

وليظل صوته صارخاً: هذا السراج لمن يحمله..




الوردة الشهيدة..

شعر: أمين عيزوقي

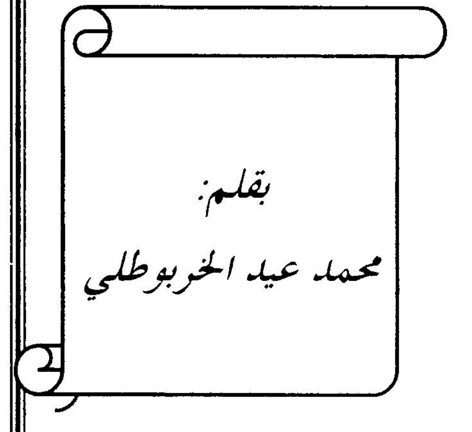
أهـــديتُها وردةً حمـــراء قانيـــةً
خبأتُهـا عـن عيـون النـاس بالمُقَـلِ
حاشـيتُها مـن صـبا وجـد يـؤرقني
في الـدار سيجتُها بـالحرص والوجـلِ
شـذبتُها بيـدي.. هـذبتُها.. فنمـتْ
ثـم اسـتعرتُ لهـا الألـوان مـن زُحَـلِ

* * *

أهملْتهـا ترفـاً مـنْ غـير مـا سّـبب
ثـم افترقنـا إلى حـين علـى عجَـلِ
ثـم اكتشـفتُ بـأن الـوردة انكسـرت
شـوقاً إليـك.. ومـا عانتْـه مـن ملَـلِ
عوّدتهـا الشـم والأنفـاس عـاطرةٌ
ومـن لمـاك.. رحيـق الزهـر والعسـلِ
القيتهـا وتركتهـا.. فمـات أسـىً
شـوق تحاشـته.. بـين العـذر والعذلِ
تشـكو النـوى ولهـا مـن طـبعكم عجـبٌ
عنـد اللقـاء.. كمشـتاقٍ بـلا أمـل
ماتـت كمـا بصـحارى الأرض موطنهـا
وغـادرت عزهـا في أجمـل الحُلـلِ
لـو أنهـا خُيّـرت في شـكل ميتتهـا
ماتـت علـى الثغـر بـين الشـم والقبـل
مـا مـات مـن علّـةٍ مـن أنـت هـاجره
لكنـه الحـب.. درب المـرء للأجـلِ




بداية طباعة الكتب العربية في أوروبا



حظيت الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا باهتمام متنام منذ أن نشط العرب والمسلمون في إبراز أبهى النماذج لحضارتهم في شتى أنواع العلوم والمعرفة والفنون، فمن الثابت تاريخياً أن الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس كانت مركزاً للإشعاع الحضاري الضخم ليس لأوربا وحدها ولكن لأرجاء المعمورة كافة، حيث توافد إليه العديد من الفعاليات الثقافية ورجال الدين الأوروبيين للتعرف على ثقافة ذلك الآخر وحضارته.

هذا وقد بدأ الاهتمام الأوربي بالثقافة العربية والإسلامية منذ القرن الثامن الميلادي، عندما فتح طارق بن زياد الأندلس، ومنذ ذلك الحين كان رجال الدين والمثقفون الأوربيون يتوافدون على مراكز التعليم الأندلسية في قرطبة وإشبيلية وطليطلة، للإطلاع على أبرز مؤلفات العرب والمسلمين وترجمتها إلى اللغة اللاتينية، ومن بين هؤلاء الأوروبيين الوافدين الإيطاليين (جيرارد دوكريمونو ١١١٤ – ١١٨٧)، والألماني (ألبرت لذغران ١١٩٣ – ١٢٨٠) وغيرهما، وفي مراحل لاحقة وبعد إخفاقات الحملات الصليبية أدركت الكنيسة أهمية دراسة الثقافة العربية والإسلامية وفهمها والتصدي لها بأساليب غير عسكرية، لذلك وافق المجمّع المقدس المنعقد في فيينا ١٣١ – ١٣١٢م على ضرورة تدريس اللغات الشرقية في الجامعات والكنائس خاصة اللغة العربية، لذلك صارت تدرس العربية في مدينة البندقية وجنوة وبيزا وغيرها، وقد برع في هذا المجال التجار الإيطاليون الذين ركزوا نشاطاتهم على التجارة مع مرافئ حوض المتوسط التي كان يسيطر على معظمها العرب والمسلمون.

وهناك ثمة حدثان تاريخيان مفصليان كان لهما الأثر الكبير في تنامي حركة الاستشراق في أوربا، الأولى اختراع الطباعة عام ١٤٤٥م، حيث أصبح باستطاعة الأوربيين الإطلاع على الكتابات الإغريقية والرومانية والعربية وغيرها مطبوعة، فلا أحد ينكر الدور الذي قام به المستشرقون

الأوربيون في تحقيق التراث العربي والإسلامي ونشره، وإن كان يشك بدوافع بعضهم إلاّ أنه وجد منهم مستشرقون جيدون ومنصفون، حيث جاءت جهودهم في تحقيق تراثنا محمودة.

الحدث الثاني هو التقدم العسكري العثماني في وسط أوروبا، والذي كان حافزاً للمزيد من التعمق في فهم الآخر لمواجهته وفهم الأسس التي انطلقت منها الحضارة العربية والإسلامية، فقد شعر الأوربيون وبشكل خاص المؤسسة الدينية بالحاجة الماسة لفهم الآخر والتصدي له، فتنامت النزعة الاستعمارية تحت شعارات مختلفة كان أبرزها شعار التبشير، وبالفعل فقد بدأ تدريس العربية في جامعات روما وباريس وليدن وجنوى والبندقية وغيرها.

أول ظهور للحرف العربي في الكتب الأوروبية:

أول ظهور للحرف العربي في كتاب أوروبي كان سنة ١٤٨٦م عندما نشر الرحالة الألماني (بيرنهارد فون بريدنباخ) انطباعاته عن رحلة قام بها إلى القدس ما بين نيسان ١٤٨٣ وكانون الثاني ١٤٨٤م، حيث ظهر الحرف العربي في الصفحة ٨١ من كتابه، أما الكتاب الثاني الذي ظهر فيه الحرف العربي، فهو كتاب الراهب الإسباني (بيدرو دي الكالا) الذي كلف من قبل رئيس أساقفة غرناطة عام ١٤٩٩م بالعمل على إنجاز معجم عربي – إسباني لاستعماله من قبل المبشرين أثناء عملهم بين المسلمين في مملكة غرناطة، وقد أنجز هذا المعجم عام ١٥٠٥.

وقد سبق اهتمام الأوربيين بحضارة العرب والمسلمين عصر جوتنبرج – عصر اختراع الطباعة – ففي القرن الثاني عشر الميلادي كان (جيرارد كريموث) يدير في إسبانيا مؤسسة للترجمة من اللغة العربية إلى اللاتينية، وكان في البندقية بإيطاليا عام ١٤٧٣م أربعون طبعة من كتاب ابن سينا باللغة اللاتينية.

أما أول كتاب ظهر في أوروبا باللغة العربية فيعود تاريخه إلى عام ١٥٤١م وهو كتاب موجه إلى الروم الأرثوذكس الشرقيين، وكان عنوانه (كتاب صلاة السواعي)، وتولى نشره في (فانو جريجوار الجريجواري) بتوجيه من البابا ليون العاشر، ثم صدر بعده كتاب مزامير داود في مدينة جين بفرنسا عام ١٥١٦.

فضل صناعة الورق سابق على الطباعة:

ليس من المبالغة القول إنه لا يوجد في تاريخ البشرية اختراع يفوق في آثاره اختراع الطباعة، فقد كانت أكبر ثورة حضارية شهدها العالم، إلاّ أن ثمة حقيقة تاريخية بأن الطباعة ما كانت لتقوم لها قائمة ما لم يسبقها صناعة الورق في الصين في بداية القرن الثاني للميلاد، وانتقال تلك الصناعة للعرب والمسلمين الذين احتكروا إنتاجها طيلة سبعة قرون، وعلى الرغم من أن صناعة البردي في مصر سبقت صناعة الورق بقرون طويلة، إلاّ أن انتشاره في العالم اليوناني والروماني ومن ثم الأوربي كمادة للكتابة لم يساعد ذلك على انتشار الطباعة، إذ كان على فن الطباعة في أوربا أن ينتظر قروناً أخرى حتى تنتشر صناعة الورق فيها، ليظفر يوهانس (يوحنا) جوتنبرج باختراعها، ومن المعروف تاريخياً أن أوربا كانت تستهلك كثيراً من الورق الذي كان يصدر إليها من بغداد ودمشق عبر القسطنطينية، ومن شمال إفريقيا عبر صقلية، ومن الأندلس عبر فرنسا، حتى تعلم الأوربيون صناعته من العرب، وأجادوا صناعته، فكان أول مصنع للورق في أوربا أسسه (جان مونت جولفيه) في فرنسا عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م، بعدما اطلع على وسائل وأسرار هذه الصناعة في دمشق، ثم أنشئ بعد ذلك بقرن أول مصنع للورق في إيطاليا عام ١٢٢٦م، ولم يحل القرن الرابع عشر الميلادي إلا وأصبحت إيطاليا المصدر الرئيسي للورق إلى أنحاء أوربا كافة، وبعدها تقلص الطلب على الورق المصنوع في العالم الإسلامي.

طباعة الكتب العربية في أوربا:

لم يكن فن الطباعة اكتشافاً أوربياً، بل سبقهم إليه الصينيون، ومن بعدهم المسلمون، فتعلم الأوربيون منهم هذا الفن في جملة ما تعلموه من المظاهر الفكرية والتقنية الإسلامية، ففي الوقت الذي كانت تطبع فيه الكتب في اليابان وكوريا والصين بواسطة القوالب الخشبية ثم بالحروف المتحركة، كان إنتاج الكتب في العالم الإسلامي عموماً وأوربا خصوصاً يعتمد على النسخ، وقد كانت هناك بعض المحاولات الطباعية في العالم الإسلامي، إلاّ أنه لم يكتب لها النجاح والإنتشار عند المسلمين لعدم اهتمامهم بهذه التقنية الآلية لأسباب ذوقية وحسية وجمالية تتعلق بجمال الخط العربي، وليست دينية كما يزعم (توماس كارتر) الذي ادعى أن العرب رفضوا طباعة كتبهم المقدسة بوسائل ميكانيكية لأسباب دينية، مما أخر انتشار الطباعة من الشرق الأقصى إلى أوروبا، ويبدو أن (كارتر وسقدال) لم يطلعا على المقالات الكثيرة حول استخدام العرب للقوالب الخشبية في طباعة الكتب الدينية وخاصة القرآن الكريم والأدعية وحتى أوراق اللعب، ويؤيد هذا اكتشاف ما يزيد على خمسين وثيقة من الوثائق العربية المطبوعة على الرق وقماش الكتان، عثرت عليها بعثة من علماء الآثار النمساويين في منطقة الفيوم بمصر مع الوثائق البردية المعروفة ببرديات (الدوق راينر)، وأكثر هذه الوثائق محفوظة اليوم في المكتبة الوطنية في فيينا، ويرجع تاريخها للفترة الممتدة من (٩٠٠ – ١٣٥٠م) وهي موصوفة وصفاً دقيقاً في فهرس خاص بها.

ويؤكد جاك (ريسلر) عملية انتقال فن الطباعة من المشرق الإسلامي إلى أوروبا بقوله: "فلعل أهل جنوة الأذكياء اغتنموا الفرص التجارية، واستوردوا من الشرق إلى أوربا سر طباعة أوراق النقد بطريقة الحروف المتحركة".

ومهما يكن من أمر فإنه من المؤكد أن اختراع الطباعة بالحروف المعدنية المتحركة في أوروبا كان علامة مضيئة في تاريخ الحضارة الإنسانية، وعلامة مضيئة في تاريخ صناعة الثقافة، وهي بكل تأكيد خطوة أولى نحو طريق تقنية المعلومات، إذ ساعدت في حفظ المعرفة البشرية بتعداد نسخها، ما ساعد على نشرها في أوسع نطاق على عكس الحال بالنسبة للمخطوطات.

الطباعة في ألمانيا:

إن نجاح أي اختراع يستلزم توفر شرطين أساسيين في المجتمع الذي يولد فيه:

١- توفر عناصر المادة الخام اللازمة للطباعة ومن أهمها الورق.

٢- حاجة المجتمع إلى هذا الإختراع، فقد ثبت أن المجتمع الأوروبي كان بحاجة إلى اختراع الطباعة، لترافق عصر النهضة التي بدأت في الازدهار، وكانت مستلزمات الطباعة متوافرة في ذلك الوقت، وفي مقدمتها انتشار صناعة الورق ووفرة الحبر وجودته، والمكابس التي يحتاج إليها في عملية الطباعة، ما أدى إلى اختراع الطباعة التي تنسب إلى (يوحنا جوتنبرج)، ويستند الباحثون إلى إسناد اختراع الطباعة له إلى مصدرين أساسيين:

- ما تبقى من أوائل الكتب التي قام بطبعها جوتنبرج.

- شهادة المؤرخين والكتاب المعاصرين له من أنه مخترع الطباعة.

ترك (يوحنا جوتنبرج) مدينة ماينز مسقط رأسه لأسباب سياسية، فاستقر في ستراسبورج وعمل في صناعة المرايا، لكنه عاد إلى ماينز عام ١٤٤٨، فأنشأ مطبعة بمعونة (يوحنا فوست) الصائغ الذي أقرضه المال لمشروعه.

صدرت عن هذه المطبعة الكثير من المطبوعات القيمة، مثل المنشورات البابوية التي أصدرها (نقولاس الخامس)، والذي كان يدعو فيها إلى تأييد ملك قبرص في مناهضة الأتراك عام ١٤٥٤م، وتعد هذه المنشورات علامة بارزة في

فن الطباعة الأوربي بسبب جودة طباعتها ووضوحها، إلاّ أنَ العمل الضخم الذي ترك أثراً كبيراً هو الكتاب المقدس المكون من اثنين وأربعين سطراً، والذي طبع عام ١٤٥٦م، وهو أول كتاب يطبع في أوربا بالحروف المتحركة، ويسمى أحياناً (إنجيل جوتنبرج) لأنه من تصميمه وطباعته، كما يسمى أيضاً كتاب (مازاران المقدس) لأنه وجد في باريس في مكتبة الكاردينال (مازاران) الوزير الفرنسي في القرن السابع الميلادي، ومازالت نسخة من هذا الكتاب محفوظة في متحف اللوفر الفرنسي في باريس، وهذا الكتاب المقدس طبع في مجلدين، وعرف كما مر معنا بالكتاب المقدس ذي الإثنين وأربعين سطراً، ذلك لأن الصفحة الواحدة مقسومة إلى عمودين متوازيين، وفي كل عمود إثنان وأربعون سطراً.

وقد ثبت أيضاً أن (جوتنبرج) هو من قام بطباعة ثلاثة كتب وهي الغفران والنحو اللاتيني والكاهنات العرافات، وذلك قبل طباعته الكتاب المقدس باللاتينية عام ١٤٥٦م، الذي يعد أول ما أنتجته المطابع الألمانية رسمياً من الكتب.

ثم تطورت الطباعة في ألمانيا على يد (فوست) رجل الأعمال الذي امتلك مطبعة (جوتنبرج) وفاءً بدينه وطورها، وبدخول (بيتر شوفر) أحد عمال جوتنبرج المهرة شريكاً لفوست نجحا نجاحاً كبيراً، وطبعا عدداً مهماً من الأعمال، مثل كتاب المزامير الذي يعد أول كتاب مطبوع يحمل بعض البيانات الوراقية، مثل اسم الطابع وتاريخ الطباعة، كما قاما بطبع عدد جديد من الكتب المهمة وكان أهمها الكتاب المقدس ذو ٤٨ سطراً عام ١٤٦٢م.

بعد ذلك بدأ فن الطباعة ينتشر في أنحاء ألمانيا وأوربا، وكان أولها إيطاليا، ومما يذكر أن أقدم كتاب طبع بالحروف العربية في أوربا بطريقة القوالب الخشبية هو كتاب (برايدنباخ) رحلة إلى الأرض المقدسة في مانيز بألمانيا عام ١٤٥٦م، ثم طور الألمان حروف الطباعة العربية، فقد ساهم الطبيب الألماني (بيتر كيرستن) ما بين ١٦٠٨ – ١٦١١م، بمشروع طباعة أربعة كتب في اللغة والدين ونشرها على نفقته الخاصة، وكتاب القانون لابن سينا، حيث كان كيرستن يعشق الطب العربي ويؤمن به كثيراً، لذلك حرص على نشر النصوص الطبية العربية في نشرات تخلو من أخطاء الترجمة.

وفي نهاية القرن السادس عشر ظهرت طبعات عربية أخرى في ألمانيا وبولندا وسويسرا، حيث تم نشر ٤٩ كتاباً في ١٧ مدينة، وكان (جوهان هنريغ هونخر) (١٦٢٠ – ١٦٦٣) من أنشط الناشرين بالعربية، وهو الذي نشر أول نص كامل للقرآن الكريم في مدينة هامبورغ مع مقدمة بقلم الأسقف البروتستانتي (إبراهام هنكلمان) (١٦٥٢ – ١٦٩٥)، وكانت المقدمة باللغة اللاتينية.

الطباعة في إيطاليا:

ازداد الإهتمام بالطباعة العربية وانتشر في أوروبا خاصة في إيطاليا منذ القرن السادس عشر، لأن الطابعين الألمان انتقلوا إلى إيطاليا وأنشأوا المطابع في كثير من مدنها مثل روما والبندقية، فكانت مدينة البندقية مركزاً طباعياً مميزاً كما كانت تعد أعظم مركز للثقافة والعلم وتجارة المخطوطات في العالم في تلك الحقبة، وكان أول من أدخل الطباعة إليها (جون سير) الألماني عام ١٤٦٩م، ثم لمعت أسماء عديدة في فن الطباعة، وكان أول كتاب عربي طبع بأحرف عربية في البندقية القرآن الكريم، الذي اختلف الباحثون في تحديد تاريخ طباعته حيث امتد من عام (١٤٩٩ – ١٥٣٨م) وتوجد نسخة منه في مكتبة الدير الفرنسيسكاني (القديس ميخائيل بالبندقية) وقد قام بطباعته (ألسندرو باغنينو).

وفي مدينة فانو أمر البابا (يوليوس الثاني) بطبع كتاب (الأوقات السبعة القانونية للصلاة) باللغة العربية عام ١٥١٤م، وفي عام ١٥٨٣ طبع (جاكوب مايليوس) كتاب نحو عربي ونشره مع ترجمة عن الرسالة الإنجيلية وكتابا

آخر عن العقائد، وقد نشر المستشرق الإيطالي (ريموندي) كتاب الأجرومية في النحو العربي لمحمد بن داود الصنهاجي مع ترجمته إلى اللاتينية عام ١٥٩٢م، والذي صار أساساً لكتاب القواعد العربية الذي نشره المستشرق الهولندي (توماس أربيسون) في ليدن عام ١٦١٣م.

وفي القرن السادس عشر تم طبع العديد من الكتب بالأحرف العربية تحت إشراف الكنيسة التي كانت تقوم بحملة منظمة لإقناع الكنائس الشرقية بالخضوع لسيطرتها، ولتحقيق هذه الغاية أسست الكنيسة معاهد للإسهام في تسهيل مهمتها، فأسست المعهد اليوناني عام ١٥٧٦، والمعهد الماروني عام ١٥٨٤م، وانصبّ نشاط هذين المعهدين على الترجمة من العربية واليونانية والسريانية والكرشونية إلى اللاتينية، كما تم طبع الكتب الدينية واللغوية باللغة العربية لمواجهة تنامي النشاط البروتستانتي الذي بدأ بالتغلغل في الطوائف المسيحية الشرقية، في هذه الفترة برزت أسماء مثل إبراهيم الحاقلاني، جرجس عميرة، جبرائيل الصهيوني، آل السمعاني، وجميعهم موارنة لبنانيون، ومن خلال نشاطهم تمت عملية اقتناء واسعة للمخطوطات العربية والسريانية والكلدانية والفارسية التي شكلت في مجموعها النواة الأولى والأساسية لمقتنيات مكتبة الفاتيكان من المخطوطات الشرقية.

وقد ساهمت الكنيسة الكاثوليكية في طباعة الكتب العربية وتوزيعها في المشرق العربي من أجل نشر دعوتها، لذلك أصدرت المطابع في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كتباً بالعربية أو بالعربية واللاتينية، وكانت مطبعة (الجزويت) في روما في طليعة هذه المطابع، وكان الأسقف (جان بانيست اليانو) من يقوم بتحضير الأحرف العربية فقد كانت له معرفة واسعة بها.

مطبعة مديتشي:

صدر في روما ما بين ١٥٩٠ و ١٥٩٥ سبعة كتب بالعربية، حيث طبعت من قبل الكاردينال (فرناندو دومديتشي) الذي كلف بدوره المستشرق الإيطالي (جوفياني رايموندي) (١٥٤٠ - ١٦١٤) بالإشراف عليها، وهذه الكتب حسب تسلسلها التاريخي:

- ١٥٩٠ - ١٥٩١ الإنجيل المقدس وهو أول كتاب يصدر عن مطبعة مديتشي، كما صدر له طبعة ثانية بالعربية واللاتينية.

- ١٥٩٢ صدر كتابان عربيان (الكافية) لابن الحاجب و(المقدمة الأجرومية) للصنهاجي. كذلك صدر أيضاً كتاب (القانون في الطب) لابن سينا والذي كان معروفاً في أوربا بترجماته إلى اللاتينية بعنوان القانون، وصدر كتاب آخر لابن سينا بعنوان (كتاب النحاة) وهو مختارات من كتاب الشفاء.

- في عام ١٥٩٤ صدر كتاب (إقليدس) باللغة العربية، الذي ترجمه عن اليونانية عالم خراسان ناصر الدين الطوسي.

- وفي عام ١٥٩٥ صدر كتاب (اعتقاد الأمانة الأرثوذكسية) للأسقف (جان باتيست اليانو) بطبعة عربية وطبعة لاتينية عربية.

كما أن المطبعة أصدرت عام ١٥٩٢ (قاموساً بالعربية) مع مقدمة تعريف بهذه اللغة، كتبت باللغة اللاتينية، كما أنه صدر ما بين عامي ١٥٩٢ و ١٥٩٤ كتاب (لغوي) مشابه للتعريف باللغتين السريانية والكرشونية.

مطبعة فاري في روما:

أسس الدبلوماسي الفرنسي (فرنسيس سافاري دوبرايف) عام ١٦١٣، في روما مطبعة لغات شرقية، بعد أن أمضى في الشرق ما يقارب ٢٢ عاماً درس خلالها اللغة التركية، وقد أشرف على المطبعة (إيتيان بولان) الذي كان يعمل في مطبعة مديتشي.

وقد صدر عن مطبعة سافاري في روما أربعة كتب، عالجت أموراً دينية كاثوليكية، وبعد انتهاء سفارة سافاري في روما ١٦١٤م نقل مطبعته إلى باريس عام ١٥١٦ واصطحب معه

تلميذين لبنانيين من خريجي المعهد الماروني في روما، وهما (جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني)، للإشراف على الكتب المراد طباعتها.

مطابع إيطالية أخرى:

تأسست مطبعة الإيمان المقدس في روما عام ١٦٢٦، وقد تلقت الدعم من الإمبراطور (فرديناند الثاني) من هسبورغ، ونشرت ٢٢ كتاباً دينياً من بينها ١٦ كتاباً لغوياً.

وفي مدينة ميلانو أسس الكاردينال (فريدريك بورميو) مطبعة أميروسيان عام ١٦٣٢، وطبع فيها باللغة العربية (القاموس المحيط) للفيروز آبادي، وقام بترجمته إلى اللاتينية – جيجيو) وصدر بعنوان كنز اللغة العربية في أربع مجلدات ضخمة، وانتشر في مختلف المعاهد والمؤسسات التعليمية الأوربية بحيث صار مصدراً رئيسياً للدراسات الإستشراقية كافة التي صدرت لاحقاً.

وفي مدينة بادوا أسس مطرانها عام ١٦٨٤ مطبعة عربية، طبع فيها أربعة كتب، وهي (الإختصار المختصر في الكمال المسيحي، ومناجاة الحبيب ونصائح القريب عام ١٦٩٠)، وهما من تأليف مطران مدينة ماردين (تيموتيو أنجليني) ونشرهما باسم مستعار وهو (دافي الديار بكري).

أما أبرز الكتب التي طبعت في هذه المطبعة عام ١٦٩٨ فكانت كتاب (القرآن الكريم باللغتين العربية واللاتينية وقام بترجمته وتقديمه (لودفيكو ماراشي).

الطباعة في فرنسا:

اهتمت فرنسا بالإستشراق والتنصير كثيراً،لذلك اعتنت بتعليم الرهبان والقساوسة اللغة العربية، وكان مركز الطباعة في فرنسا (المطبعة الملكية في باريس)، وقد حفر لها الحروف العربية وصبّها وسكبها (سافاري دي بريف) وأول كتاب عربي طبع فيها (في صناعة النحو) تأليف القس العربي (جبرائيل الصهيوني والشماس الماروني يوحنا الحصروني) عام ١٦١٣، ثم طبع كتاب (فلاسفة العرب) وعدة طبعات للإنجيل وترجمة عربية لشرح القصيدة المسيحية.

ومن أهم طابعي فرنسا في القرن ١٨ (فرانسوا ديدوت) الذي أسس من الطباعين مطبعة تحمل اسمه، فابنه مصمم حروف رومانية ومائلة بأشكال جديدة، كما وضع قياس أحجام الحروف بالنقط، وهو من أدخل الطابعة اليدوية، وابنه الآخر أنشأ مصنعاً للورق في إيزون بفرنسا، فعنده كانت أولى ماكينة لصنع الورق.

وقد طبع في مدينة جين بفرنسا كتاب (فراميرداود) عام ١٥١٦ بلغات عديدة منها العربية، وقد ذكر ناشره (جوستنياني) أنه طبع منه ألفي نسخة عادية وخمسين نسخة ممتازة أهداها لأمراء مسيحيين ومسلمين.

الطباعة العربية في إسبانيا:

دخلت الطباعة العربية إلى إسبانيا على يد بعض المهاجرين الألمان حيث نقلوا فن الطباعة معهم، وقد طبع في غرناطة عام ١٥٠٥ كتاب (فن تعليم اللغة العربية بسهولة) لمؤلف مجهول وكذلك طابعه، وقد رسمت فيه الكلمات العربية بأحرف لاتينية.

كذلك دخلت الطباعة إلى برشلونة على يد مجموعة من الألمان، أمثال (هنريش بوتل وجورج فون هولتز ويوحنا بلانك)، أما أول كتاب طبع في برشلونة فهو كتاب (الأخلاق) لأرسطو عام ١٤٧٣.

أما في إشبيلية فقد دخلت الطباعة إليها عام ١٤٧٧ على يد الأسباني (ألفونسوا دل بورتو وأنون مارتينز وبارتلميو سيجورا)، ثم دخلت إلى طليطلة عام ١٤٨٤ على يد (خوان فاسكيز)، وفي عام ١٤٩٠ قامت ملكة إسبانيا (إيزابيلا) بتمويل طبع قاموس إسباني، أما غرناطة فلم تدخلها المطابع إلاّ في عام ١٤٩٦ على أيدي (مينارد أوبخوت ويوحنا بجنترز).

وقد وفد الكثير من الأوربيين إلى إسبانيا لينهلوا مما خلفه العرب والمسلمون فيها، وكان منهم الإيطالي (جيرارد دوكريمونو) والألماني (ألبرت لوغران)، وقد قام (يعقوب خوليوس) بتأليف قاموس عربي - لاتيني، وقد أدى الاهتمام بدراسة اللغة العربية والفكر الإسلامي في إسبانيا إلى إنشاء العديد من مراكز البحوث والدراسات العربية الإسبانية لدراسة التاريخ الطويل من التواصل الحضاري والثقافي الذي ترك بصمات قوية على الثقافة الإسبانية والأوربية.

الطباعة العربية في هولندا:

تأخرت الطباعة العربية في هولندا بالنسبة لغيرها من بلدان أوربا، التي كانت بدايتها لاهوتية تبشيرية، وعرف في هولندا ثلاث مطابع تنشر الكتب العربية، وكانت في مدينة أوترشت وأمستردام وليدن، وتعد ليدن في هولندا من أشهر مراكز الإستشراق في أوربا وأقدمها، ودخلت الطباعة إلى ليدن على يد (هنريكوس هنركي)، وأول كتاب طبعه (حوليات هولندا) عام ١٤٨٣، ولم يطبع في مطبعته ما بين القرن السادس عشر والسابع عشر إلاّ ٣٨ كتاباً.

وقد شكلت جامعة ليدن عام ١٥٧٥ لجنة تضم مثقفين ورجال دين في شتى العلوم الإنسانية لدراسة اللغة العربية والعبرية ونشر آثارهما، وفي عام ١٥٨٦ كان (د. فرنسيس رافالينهوس) المختص باللغات الشرقية مشرفاً على ما صدر عن جامعة ليدن من مطبوعات باللغات الشرقية.

وفي عام ١٥٩٥ أسس المستشرق الهولندي (توماس أربينيوس) مطبعة حديثة في ليدن، وصدر عنها عام ١٦١٥ كتاب (أمثال لقمان والعهد الجيد) ١٦١٦، و(قصة يوسف) مستلة من القرآن الكريم، وهو أول كتاب عربي يطبع مضبوطاً بالشكل الكامل.

هذا وقد حازت مطبقة ليدن في طباعة التراث العربي والإسلامي وتحقيقه شهرة واسعة، وسمعة عالمية ممتازة بسبب ما نشرته وطبعته من كتب باللغة العربية، والحق يقال أن مطبعة ليدن كانت جسراً للتواصل الثقافي والحضاري بين أوربا والعالم العربي والإسلامي، لدورها الحضاري الذي قامت به على مدى قرون طويلة.

وقد قام (توماس أربينوس) المستشرق الهولندي بطباعة كتاب (مبادئ اللغة العربية) عام ١٦١٣ في مطبعته بليدن، وقد وضعه على أساس كتاب (الأجرومية) كما أضاف إليه بعض التمارين في القواعد العربية، وإرشادات حول تنظيم دراسة اللغة العربية بطريقة ناجحة، وفي طبعة باريس عام ١٦٢٠ أضاف (أربينوس) مع (كوديوس) قائمة بالكتب المعنية بالدراسات العربية حتى وقته.

ومع وجود طبعات كثيرة للأجرومية إلا أن أربينوس طبعها بمطبعته في ليدن مع كتاب (العوامل المئة) ونسبه للجرجاني عام ١٦١٧، وبعد أن نقحه (جبرائيل الصهيوني سخولتنس وميخائيليس) وأضافوا عليه تكرر طبعه مرارا، لأنه كان الكتاب الأول في تدريس اللغة العربية للمبتدئين في كل أوروبا، وكانت آخر طبعة له في هولندا، بتنقيح (سخولتنس) وقد طبعت في ليدن ١٧٧٠م.

الطباعة العربية في بريطانيا:

بدأت الكتب العربية المطبوعة في بريطانيا بالظهور عام ١٦٣٧ في أهم مطبعتين تطبعان بالحرف العربي في أكسفورد ولندن، وكان (إدوارد بوكوك) من أبرز الأسماء التي نشطت في مجال النشر العربي في بريطانيا خاصة وسبق له أن عاش في حلب ما يقارب الست سنوات تعلم خلالها العربية، كما تعاون مع مجموعة من المستعربين أمثال (توماس غراين وصموئيل كلودك وتوماس هايد) وغيرهم على إصدار كتب بالعربية واللاتينية، وقد نشر (بوكوك) عام ١٦٥٩ مع (سلديني) كتاب (نظم الجوهر) لسعيد البطريق، كما نشر (بولوك) لوحده كتاب (تاريخ مختصر الدول) لابن العبري في أكسفورد عام ١٦٣، كذلك نشر عام ١٦٥٠ نصاً تاريخياً لابن العبري بعنوان (ألمع

من أخبار العرب) مع ترجمة لاتينية له، كما حقق مقاطع من كتاب أبي الفدا (تقديم البلدان) ونشرها بالتعاون مع (توماس غرايف)، ويعد قاموس اللغات الشرقية الذي حوى سبع لغات ونشر عام ١٦٦٩ من أبرز المطبوعات التي نشرها البريطانيون.

هكذا وقد انتشرت الطباعة العربية في بلدان شرق أوروبا وروسيا، وتميزت الطبعات الأولى بطابع ديني أو لغوي، ثم بدأت النصوص التاريخية والفلسفية بالظهور تدريجياً وبشكل متزايد مع تنامي المعرفة الأوروبية المنظمة باللغات الشرقية عموماً والعربية بشكل خاص.

بعض الكتب المطبوعة في أوروبا:

بعد ما تحدثنا عن حركة طباعة الكتب العربية في أوربا نعرض لبعض الكتب التي طبعت في أوربا، فهي دليل على ما حققته الطباعة من أثر عظيم في الحفاظ على هذا التراث النفيس، وهي شاهد أيضاً على تواصل الجسور الثقافية والحضارية بين العرب والمسلمين وأوربا خاصة والشرق والغرب بصورة عامة.

ومن المؤكد أن المطبوعات العربية الأولى التي ظهرت في أوروبا رغم ما يشوب بعضها من سلبيات، إلاّ أنها تبقى سجلاً فريداً من نوعه، كشف للعالم الأوربي المتعطش لسبر أغوار الثقافة العربية – الإسلامية عالماً متميزاً قائماً بذاته، وإلى اليوم ما تزال المؤسسات الإستشراقية والجامعات والمعاهد تنهل من خيراته.

ومن هذه الكتب الكثرة المطبوعة:

١ – الآثار الإسلامية:

ألف (كارل شير) باللغة الألمانية كتاب (النقوش العربية في متحف دريسدن)، وهو دراسة تحليلية للنقوش العربية المكتوبة على جدران القبة الخضراء في المتحف الملكي في مدينة دريسدن الألمانية، وكذلك للقطع المتحفية المحفوظة في القبة نفسها، مثل الملابس والأسلحة والأختام والأواني الزجاجية.

والدراسة من نوع الدراسات العلمية للآثار العربية، فقد ركز المؤلف فيها على قراءة النقوش وتحليل مفرداتها وترجمتها.

وقد طبع الكتاب عام ١٨٦٧م في ليبزج وجاء في ٤٨ صفحة.

٢ – الأدب العربي:

حقق (جوستاف فلوجل) كتاب (مختصرات من كتاب مؤنس الوحيد في المحاضرات) لعبد الملك الثعالبي النيسابوري (٣٥٠ – ٤٢٩هـ)، وطبعه في فينا بمطبعة (أنتون شميد) عام ١٨٢٩م وجاء بـ ٢٩١ صفحة، وهذه المختصرات من عمل المحقق، وقد ترجمه إلى اللغة الألمانية وأضاف إليه شروحات في ذيله.

٣ – الحديث:

حقق (لودولف كريل) كتاب (الجامع الصحيح في الحديث الشريف) للإمام البخاري (١٩٤ – ٢٥٦هـ)، وقد طبعه عام ١٩٠٨ في ليدن بمطبعة بريل وجاء بـ ٥٠١ صفحة، والكتاب من الكتب المعتمدة عند المسلمين بعد القرآن الكريم لكثرة الشروط التي وضعها في قبول الحديث.

٤ – الفقه:

حقق المستشرق الروسي (فيلندي قزان) كتاب (جامع الرموز) للإمام شمس الدين محمد حسام الدين القهستاني الخرساني المتوفى عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م، وهو شرح لكتاب النقاية مختصر الوقاية في الفقه الحنفي لعبد الله بن مسعود، وطبعه في مطبعة (كوكوبين ده) عام ١٨٨٠م، وجاء بـ ٤٠٥ صفحة، وعلى الكتاب عبارة تملك لمحمد فاتح بن ملا محمد ظريف

القرغاوي البلغاري سنة ١٨٨٣م، وهو اليوم من ممتلكات مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض.

٥- الأنساب العربية:

حقق المستشرق الفرنسي (بيتروس جوهانزفيث) كتاب (لب اللباب في تحرير الأنساب) الذي هو مختصر لكتاب اللباب في الأنساب لابن الأثير، اختصره جلال الدين السيوطي وجعل فيه ٤٣٢٣ ترجمة مرتبة هجائياً، وقد طبعه المحقق عام ١٨٤٠م في مدينة ليون بفرنسا، وجعل له مقدمة جيدة بالفرنسية مع شروحات وتعليقات بالهامش وجاءت أيضاً بالفرنسية، وتم طبعه بـ ٢٨٦ صفحة.

٦- التاريخ الإسلامي:

حقق المستشرق الألماني (ألوردت) كتاب (الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية) لمحمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي (٦٦٠ - ٧٠٩هـ) وطبعه في بيرتز عام ١٨٦٠م وجاء في ٤٥٦ صفحة، وقد بين في المقدمة الطويلة سيرة المؤلف كما شرح منهجه في إعداد الكتاب بالألمانية، كما أضاف ترجمة موجزة للأسماء الواردة في متن الكتاب.

٧- التراجم:

حقق المستشرق د. س. مرجليوث كتاب (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) وهو الكتاب المعروف بمعجم الأدباء أو طبقات الأدباء لمؤلفه أبي عبد الله ياقوت الحموي (٥٧٥ - ٦٢٦هـ)، واعتنى به المحقق ونشره في تسع مجلدات عام ١٩٢٣، وطبعه في لندن بمطبعة لوزاك، ووضع له فهرساً بأسماء الرجال الواردة أسماؤهم بمعجمه، كما وضع أمام كل اسم رقماً استرجاعياً لسهولة الوصول إلى الترجمة بالمتن الرئيسي للمعجم... وبدأه بمقدمة باللغة الإنكليزية.

٨- الجغرافيا:

حقق المستشرق الفرنسي (رينود والبارون ماك كوين دسلان) كتاب (تقويم البلدان) لعماد الدين إسماعيل المعروف بأبي الفداء الأمير العربي والمؤرخ والجغرافي المعروف، (توفي ١٣٣١م) وهو صاحب كتاب المختصر في أخبار البشر.

وطبعاه في دار الطباعة الملكية في باريس ١٨٤٠، وجاء بـ ٥٣٩ صفحة.

٩- الشعر العربي:

ويعد كتاب (العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين) الذي جمعه وحرره وحققه المستشرق الألماني (ألوردت) أستاذ اللغات الشرقية بجامعة جريفز وولد، من أهم الكتب الضخمة التي نشرها الغربيون عن الأدب العربي.

وقد طبعه في لندن في مطبعة تروبند عام ١٨٧٠م وجاء بـ ٣٣٨ صفحة، وقد ضمنه ستة دواوين لشعراء من العصر الجاهلي وهم ديوان النابغة الذبياني، عنترة بن شداد، طرفة بن العبد، زهير بن أبي سلمى المزني، علقمة التميمي، امرئ القيس.

كما جمع المحقق لكل شاعر شعره المنخول إليه ورتبه على القوافي، وأعد أيضاً فهرساً اشتمل على ما وجده في النسخ الباريسية والغوطية من ذكر السبب الذي من أجله قيلت قصائد الشعراء الستة، كما أعد قائمة بالقراءات المختلفة والتصحيحات إضافة إلى فهرس بالمحتويات ومقدمة طويلة باللغة الإنكليزية.

١٠- الطب:

(القانون في الطب) لأبي علي الشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨هـ) الذي يعد ألمع اسم بعد الرازي في تاريخ الطب العربي، وكتاب القانون في الطب فيه خلاصة فكره الطبي،

وقد ترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر للميلاد، وطبع ست عشرة مرة في القرن الخامس عشر، وكان مادة تعليم الطب في جامعات أوربا حتى أواخر القرن السابع عشر، ويشتمل على فهرس تفصيلي لمحتوياته، وطبع معه مجلد فيه مصنفات أخرى لابن سينا وهي (النجاة مختصر الشفا) و(من الطبيعيات) والذي يحتوي على بعض الرسوم التوضيحية و(الإلهيات) ويوجد منه نسخة في مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض، طبعت في المطبعة الطبية بروما عام ١٥٩٣ وجاءت بـ ٦٩٦ صفحة.

١١- علم الاجتماع:

طبع في باريس عام ١٨٥٨م كتاب (مقدمة ابن خلدون) بمطبعة بنيامين دوبرات وجاء في ثلاثة مجلدات، وقد علق عليه وشرحه المستشرق (كاترمير)، وابن خلدون هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، من أشهر علماء الاجتماع والتربية العرب (٧٣٢ - ٨٠٨هـ) والمقدمة هي جزء من عمله الموسوعي الضخم الموسوم بكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) وقد جاء في سبعة مجلدات في أغلب طبعاته، وهذه الطبعة التي نتحدث عنها موجودة في مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض.

١٢- علم الفلك:

ألف أبو عبد الله محمد بن سنان بن جابر الحراني المعروف بالبتاني (٢٤٠ - ٣١٤هـ) كتاب (الزيج الصابئ) وهو جدول أثبت فيه الكواكب الثابتة، ويتألف الكتاب من سبعة وخمسين باباً، صحح فيه حركات الكواكب ومواضعها بالرصد وحساب الكسوفين، وجعل استخراج حركات الكواكب فيه من الجداول حتى وقت انتصاف النهار من اليوم الذي يحسب فيه بمدينة الرقة التي كانت يعيش فيها البتاني.

حقق الكتاب وترجمه المستشرق (كارلونالينو) وقد طبعه عام ١٨٩٩م في روما بمطبعة مريولاني إنسبروم وجاء بـ ٢٧٩ صفحة.

١٣- الفلسفة الإسلامية:

ألف كمال الدين عبد الرزاق بن جمال الدين محمد الكاشاني كتاب (الرسالة في القضاء والقدر) وقد حققه وقدم له بالفرنسية (ستانسلاس غويا) واعتنى بنشره في باريس مع شروحات وتعليقات بالفرنسية في حواشي الكتاب، وطبعه في باريس بمطبعة ميزونيف عام ١٨٧٩م وجاء بـ ٢٦ صفحة.

١٤- القرآن الكريم:

نسخ (أبراهامي هنيكلماني) القرآن الكريم بخط يده وطبعه بألمانيا في مدينة هامبورج بمطبعة شولتزيو - شيلريانا بعنايته، وجاءت مقدمته باللاتينية التي كتبها بـ ٧٦ صفحة، طبعه في عام ١٦٩٤م بـ ٦٣٦ صفحة مع المقدمة، بعنوان (القرآن وهو شرعة الإسلامية محمد بن عبد الله).

وتعد هذه النسخة نادرة لعدة أسباب:

١- قدَمُها حيث يعود تاريخ طباعتها إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي وتعد من بواكير الطباعة في أوروبا.

٢- أن النسخة المكتوبة أصلاً جاءت بخط عربي جميل ومشكل.

٣- أن هناك شروحات وترجمات لمعاني القرآن الكريم كتبت بخط اليد، بعضها بين سطور الفاتحة والبقرة وآل عمران، والبعض الآخر بالهوامش.

٤- الشروحات والتعليقات بالهوامش كتبت باللاتينية وأحياناً بالعربية والعبرية.

٥- آيات السور جميعها مرقمة بالأرقام اللاتينية والتي يطلق عليها الغرب الأرقام العربية.

٦- في نهاية المصحف يوجد فهرس بأسماء السور بالعربية وآخر باللاتينية مرتبة كما جاءت في المتن، ومرقمة بالأرقام اللاتينية ثم اسم السورة، ومكان نزولها، وعدد آياتها، ورقم

الصفحة التي تبدأ بها، ويعد هذا الفهرس من الفهارس الجيدة للمصاحف لما يحتويه من معلومات عن كل سورة.

٧- يوجد فهرس مرتب بالأجزاء بالعربي واللاتيني.

١٥- المعاجم:

ألف المستشرق الإسباني (بيدرودي الكالا) كتاب (معجم عربي إسباني - فن تعلم اللغة العربية) بتكليف من رئيس أساقفة غرناطة (فرناندو دي تلابيرا) عام ١٤٩٩م، ليتمكن من خلاله رواد حركة التنصير آنذاك من تنصير المسلمين في مملكة غرناطة إبَّان فترة آخر حكامها (أبو عبد الله).

وقد طبعه عام ١٥٠٥م في غرناطة بمطبعة (جين فيرلادو سلمنكا) وجاء بـ ٥٤٠ صفحة.

ويعد هذا المعجم أول معجم ينشر في أوربا يغطي قواعد وكلمات اللغة العربية مشروحة باللغة الإسبانية، كما أنه أول كتاب عربي ينشر في غرناطة، وقد نشرت مقدمة الكتاب التي تتحدث عن اللهجة العربية في غرناطة لوحدها، ثم أعيد نشرها مع المعجم في العام نفسه.

والكتاب يشتمل على المقدمة وبحث عن أيسر السبل إلى تعلمها، ومبحث خاص يسلط الضوء على قواعد الصرف والنحو، ثم المعجم الذي حوى ٢٢ ألف كلمة، كتبت جميعها بالخط اللاتيني، ويقابلها معناها باللغة الإسبانية.

وتعد هذه النسخة نادرة ومهمة وهي موجودة في مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض.

١٦- اللغة العربية:

حقق المستشرق (كرلوس سترستين) نبذة من كتاب (الدرة الألفية في علم العربية) الذي صنفه (يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي المغربي) المعروف بابن معط أو ابن أبي معطي (٥٦٤ - ٦٢٨هـ) ويحتوي الكتاب على متن الألفية، وشرح مختصر لها باللغة العربية، قام به المحقق، وقد طبعه عام ١٨٩٥م في مطبعة درجلين بليبزج، وجاء بـ ٧٩ صفحة.

١٧- الديانة المسيحية:

ألف الراهب (بريسيو الكبوشي) كتاب (مختصر مجموع من التواريخ المقدسة منذ خليقة العالم إلى عهد تجسد سيدنا يسوع المسيح)، وقد طبعه في روما بالمطبعة المقدسة عام ١٦٥٥ م وجاء بـ ٨٣٨ صفحة.

المؤلف هو أحد المبشرين الكبوشيين في سوريا في أواسط القرن السابع عشر الميلادي وله عدة مؤلفات هذا أحدها.

ونص الكتاب مكتوب بالعربية واللاتينية على عمودين بالصفحة الواحدة.

الخاتمة:

هذه دراسة سريعة ألمحت خلالها إلى بدء طباعة الكتب باللغة العربية في أوربا، وسُقت لها من الأمثلة عن ١٧ كتاباً تحدثت عنها باختصار شديد خشية الإطالة والملل.

ولمن أراد الإطلاع على المزيد من هذه الأمثلة فعليه بالمكتبات العامة والمكتبات الخاصة، ففيها من النوادر ما لا يحصى كثرة وعدداً، خاصة في مكتبات الأوربيين، ومن بين المكتبات العربية التي تحتوي على كثير من هذه النوادر مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض، فقد اقتنت الكثير من هذه النوادر التي طبعت في أوربا والتي مثلت جسراً ثقافياً بين الحضارة العربية والحضارة الغربية.

كما تدل هذه الكتب على اعتناء الأوربيين بالآداب واللغات الشرقية وخاصة العربية، وقد نشرت مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض عام ٢٠٠٤م كتاباً فيه نماذج من هذه النوادر المحفوظة لديها وضم بين دفتيه عناوين لـ ١٠٤ كتب، عُلق على كل كتاب بصفحة واحدة مزودة بصورة الغلاف الأول، وهذه العناوين نموذج من مقتنياتها في علوم الفلك والطب والجغرافيا والأدب العربي والديانة الإسلامية والمسيحية...

وكل ذلك لحرص المكتبة على أن تكون هذه النوادر بين يدي الباحثين وطلاب العلم.




رسالة من دمشق..

شعر: عصام شعبان

نسِـــيْمٌ مـــنْ رُبـــا الفيحـــاءِ عَـــذْبُ
يُؤَانسُـــنا بجلـــقَ إذْ يهُـــبُّ
وَيَخْطـــرُ كالمُحـــبِّ إذا تهـــادى
بعَـــيْنِ اللهِ مـــا فعـــلَ المُحِـــبُّ
فَأَبْلغْـــهُ التحِيَّـــةَ حـــيْنَ يُمْســـي
بغوطَتهـــا وَيصْـــبحُ ثـــمَّ يَصْـــبو

* * * * *

ألا وَعِمِـــي صَـــباحاً يـــا دِمَشْـــقُ
وَهَـــلْ يَعِمَـــنَّ فيْـــكِ اليَـــوْمَ صَـــبُّ ؟
وَمـــا لـــي يـــا دِمَشْـــقُ أراكِ سَـــكرى!
يَنـــامُ الطـــرْفُ مِنـــكِ وَيَغْفـــو هَـــدبُ
ألا هُبِّـــي وَإنْ شِـــئتِ اصْـــبِحِينا
سُـــلافاً مِـــنْ شِـــفاهِكِ لـــيسَ يَخْبـــو
إذا مـــا كنـــتِ لِلأَحْـــرارِ أَرْضـــاً
فَكـــوني للنضـــالِ فـــداكِ قلـــبُ
وَقيـــلَ الـــدَّهْرُ ذو نُـــوَبٍ عِظـــامٍ
يُهـــدِّمُ مـــا بنـــى والـــدَّهْرُ عَضْـــبُ







وَيَنْبــو السَّـيْفُ مِـنْ بَـترِ ألحَنايـا
وَسَـيْفُ الحَـقِّ عِنـدَكِ لَـيسَ يَنبـو
مَصِـيْر العـزَّةُ العَليـاءُ تـدمى
ليسْـقى مِـنْ دَمِ العَليـاءِ شَـعْبُ

*   *   *   *   *

تنـادي غَـزَّةَ الأَعْـرابَ طـرّاً
أبـى الأعْـرابُ فِيْهـا أنْ يُلبُّـوا
فمـا لَـكِ ياابْنَـةَ الأَحْـرارِ تكلـى ؟!
أمـاتَ العُـرْبُ أَمْ في القَلـبِ رُعْـبُ ؟
سَـليهِمْ هَـلْ عُمـوا عَنهـا وَصُمُّوا !
أَفي آذانِهِـمْ وَقـرٌ وَصَـخبُ ؟!
أَبـى أَبْنـاءُ أُمّـكِ أَنْ يُلَبّـوا
ذَرِيْهِـمْ والخُنـوعَ جَـزاكِ رَبٌّ
فمـا للسـيْفِ إلّـا السَّـيْفُ كفـؤٌ
وَمـا للنـارِ غَيْـرَ النـارِ صَـحْبُ
وَلَمَّـا أَنْ دَعـا داعٍ مُحِـقٌّ
إلى سـاحِ الـوَغَى لَبّـاهُ غُلـبُ
رِجـالٌ عاهَـدوا والعَهـدُ دَرْبُ
علـى الأحـرار يـا ذا الشَّـعْبُ هُبُّـوا
ألا يـا أَيُّهـا الشَّـعْبُ الأَشَـمُّ
سَـلاماً مـا دَمـى في الأَرْضِ خَطْـبُ
سَـلاماً مـا نَـزَفتمْ مِـنْ دِمـاءٍ
كَـأَنَّ دَوِيِّهـا في الأَرْضِ رُهْـبُ







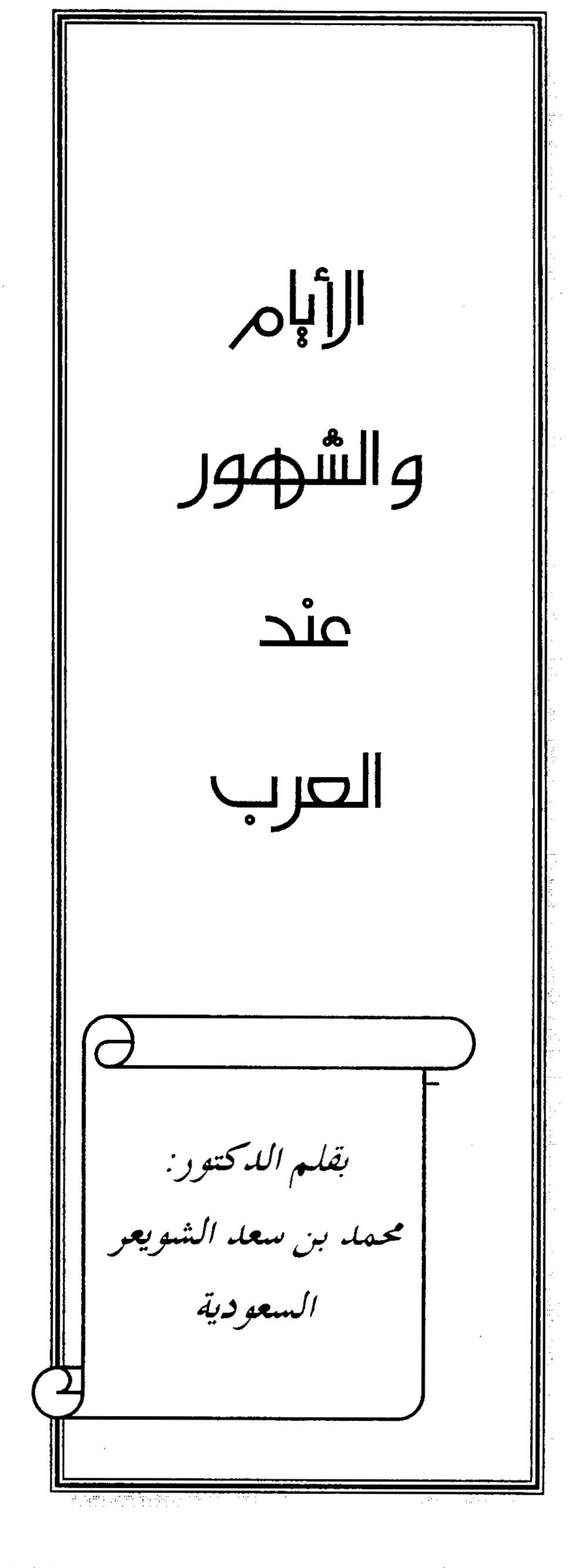


سـلاماً مـا بَـذَلتمْ مِـنْ شَـهِيْدٍ
فَـأُطعِمَ شِـلوَهُ مَـنْ فيْـهِ سَـغبُ
وَمـا رَوَّى نجيْـعُ القلـبِ غُصْـناً
تسـاقطَ مِنـهُ زَيْتـونٌ وَرَطـبُ

* * * * *

ألا يـا مِصْـرُ مـا هَـذا الخُنـوعُ ؟!
أَمـا لِلقـدْسِ تـوّاقٌ مُحِـبٌّ ؟!
دِمـاءُ الْقـدْسِ أَنضَـجَها سَـعِيْرٌ
وَ"غَـزَّةَ" بالـدَّمِ الثـوْرِيِّ تربـو
لَحَـى اللهُ الأَعـارِبَ لَـيْسَ فِـيْهِمْ
أُلاةٌ سـادَةٌ نـبلاءُ نُجْـبُ !!
دَعـاكمْ مَـنهَجُ الإسْـلامِ هبـوا
إذا مـا كـانَ في الأَحْشـاءِ لـبٌّ
لَعَمْـري إنَّ نَـوْمَكمُ مُرِيْـبُ
وَأَبْعَـدَ حـالكمْ يـا قـوْمُ قـرْبُ
بِقلـبي مِـنْ تخـاذُلِكمْ جِـراحٌ
يَحـارُ بِوَصْـفِها حكـمٌ وَطـبٌّ
وَقـى اللهُ العُرُوبَـةَ يـا دِمَشْـقُ
دَواهِـيَ قرْعُهـا فِـيْ الأَرْضِ سَـكبُ
وَ ظلـتِ دِمَشْـقُ للأَمْجـادِ رِدْفـاً
فـإنَّ الحُـرَّ للأَحْـرارِ تـرْبُ



لقد اهتم العرب في رصدهم لكثير من العلوم، بشمولية الحديث عن الأيام والشهور، فربطها المؤرخون كابن كثير والطبري، وابن الأثير ببدء الخلق، وأيهما خلق أولاً: الليل أم النهار؟؟

وأما النويري في نهاية الأرب، فقد تعرض في حديثه للسماء والآثار، والأرض والآثار السفلية وجعل القسم الثالث، من الفن الأول لليالي والأيام والشهور والأعوام والفصول.

والقلقشندي في صبح الأعشى، قد جعل حديثه مطوّلاً عن معرفة الأزمنة والأوقات، حتى استغرق منه ما يزيد على مائة صفحة.

وحتى لا نتوسع مع كتب الفلك، في الأيام والشهور، ومع ما قاله المؤرخون من الناحية التاريخية، وكذا الأدباء بالقصائد والمقطعات عن الأيام والشهور. والمشهور منها وما قيل فيها من وصف أو غيره، ولا غيرهم من أصحاب التخصصات والوقائع. أو الفلك وعلوم الهيئة، فسوف نقتصر على الأيام والشهور وما قيل فيها.

فقد ذكر النويري في الليالي والأيام ما يدل على أن الظلمة خلقت قبل النور، حيث استدل بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((خلق اللهُ الخلق في ظلمة – وروي في عماء – ثم رشّ عليهم من نوره)) كما روي عن ابن عباس ﷺ أنه سئل عن الليل، أكان قبل أو النهار؟ قال: "أرأيتم حيث كانت السموات والأرض رتقاً، هل كان بينهما إلاّ ظلمة، ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار.

والذي ورد في القرآن الكريم من ذكر الليل والنهار، والظلمات والنور، بدأ الله عز وجبل فيه بذر الليل قبل النهار، وبالظلمات قبل النور، ويروى أن الله عز وجل، لما خلق السماء والأرض، وقع ظل السماء على الأرض،

فأظلمت فجعل الشمس ضياء والقمر نوراً. ثم خلق الزمان وقسمه قسمين: ليلاً ونهاراً. فجعل حصة الليل للقمر، وحصة النهار للشمس. فكانا يتعاقبان بالطلوع فيهما، فلم يكن بين الليل والنهار فرق في الإضاءة.

فلما أراد سبحانه خلق النوع الإنساني، وعلم أنه لا غنى له عن الحركة للمعاش نهاراً، والسكون للراحة ليلاً، أم جبريل فأمرَّ جناحه على القمر فمحا نوره، فالسواد الذي يرى في القمر هو أثر المحو، وصار الليل مظلماً، والنهار مبصراً، وهذا ما يأخذه علماء التفسير من دلالة الآية الكريمة: ((وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة..)) [الإسراء ١٢]

وقال القلقشندي: اختلف الناس في مدلول اليوم على مذهبين: الأول وهو مذهب أهل الهيئة: أن اليوم عبارة عن زمان جامع لليل والنهار، مدته ما بين مفارقة الشمس نصف دائرة عظيمة ثابتة الموضع بالحركة الأولى، إلى عودها إلى ذلك النصف بعينه، وأظهر هذه الدوائر الأفق وفلك نصف النهار. ومنهم من يقدم الليل، فيفتتح اليوم بغروب الشمس، ويختم بغروبها من اليوم القابل، وعلى ذلك عمل المسلمون وأهل الكتاب، وهو مذهب العرب، لأن شهورهم مبنية على سير القمر، وأوائلها مقدرة برؤية الهلال. ومنهم من يقدم النهار على الليل، فيفتتح اليوم بطلوع الشمس، ويختم بطلوعها من اليوم القابل وهو مذهب الروم والفرس.

المذهب الثاني: مذهب الفقهاء: أن اليوم عبارة عن النهار دون الليل، حتى أن بعضهم قال: لو قال إنسان لزوجته: أنت طالق يوم يقدم فلان، فقدم ليلاً لم يقع الطلاق.. والقائلون بذلك نظروا إلى الليل والنهار باعتبارين: طبيعي وشرعي.

أما الطبيعي فالليل من لَدُنْ غروب الشمس واستتارها بحديَّة الأرض، إلى طلوعها وظهورها من الأفق، والنهار من طلوع نصف قرص الشمس من المشرق إلى غيبوبة نصفها في الأفق في المغرب، وسائر الأمم يستعملونه كذلك.

أما الشرعي: فالليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني، وهو المراد بالخيط الأبيض في قوله تعالى: ((.. حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر..)) [البقرة ١٨٧] والنهار من الفجر الثاني إلى غروب الشمس، وبذلك تتعلَّق الأحكام الشرعية من الصوم والصلاة وغيرها.

والليل: قد قسمه العرب إلى اثنتي عشرة ساعة، لها أسماء وضعوها وهي الشاهد ثم الغسق، ثم العتمةُ ثم الفحمة، ثم الموهنُ، ثم القطْعُ، ثم الجوَشُ، ثم العبكةُ، ثم التباشير، ثم الفَجر الأول، ثم الفجر الثاني، ثم المعترِض.

وحكى الثعالبي في فقه اللغة عن حمزة الأصبهاني قال – وعليه عهدته – : أسماء هذه الساعات هي: الجهمة، والشَّفق، والغسَقُ، والعتمة، والسُّدفةُ والزلَّة، والزُّلْفَةُ والهُبْرة، والسَّحَرُ، والفجر، والصبح، والصباح.

وقد عبَّر الله جلت قدرته بالليالي عن الأيام كقوله تعالى في سورة الفجر: ((والفجر وليال عشر)) وقال سبحانه في قصة موسى: ((وواعدنا موسى ثلاثين ليلة..)) كما أوضح ذلك المفسرون.

والنهار طبيعي وشرعي: فالطبيعي زمان بين طلوع نصف قرص الشمس من المشرق،

وإلى غيابه في المغرب، والشرعي: ما بين انفجار الفجر الثاني إلى غروب الشمس.

وفي الشرع أيضاً قسّم الفجر إلى فجرين: فجر كاذب وهو بياض مستطيل، وفجر صادق وهو بياض مستطير.

ومثلما وضعت العرب أسماء لساعات الليل، فقد وضعت لساعات النهار أسماء أيضاً وهي: اثنتا عشرة ساعة كالليل: الذّرور، ثم البزوغ، ثم الضُّحى، ثم الغزالة، ثم الهاجرة ثم الزوال، ثم الدُّلوك، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم الصبوب، ثم الحَرور، ثم الغروب.

وقيل أيضاً إن أسماء هذه الساعات: البكور ثم الشروق، ثم الإشراق، ثم الرَّأد، ثم الضُحى، ثم المتوع، ثم الهاجرة، ثم الأصيل، ثم العصر، ثم الطَّفَل، ثم العشيّ، ثم الغروب.

كما حكى الثعالبي في فقه اللغة عن حمزة الأصبهاني أيضاً وقال – وعليه عهدتها – أن أسماء ساعات النهار هي: الشروق، ثم البكور، ثم الغُدْوة، ثم الضحى، ثم الهاجرة، ثم الظهيرة، ثم الرواح، ثم العصر، ثم القصر، ثم الأصيل، ثم العشي، ثم الغروب.

وقد توسع القلقشندي في الحديث عن اختلاف الليل والنهار، بالزيادة والنقصان والاستواء باختلاف الأمكنة موضحاً العلة، ومع حركة الشمس السريعة والبطيئة. حسب فصول السنة، وأشهرها الشمسية الأثني عشر. وهي التي تسمى البروج: الحمل الموافق السابع عشر من برمهات من شهور القبط، ويوافق الحادي والعشرين من آذار في شهر السريان، وهو مارس من شهور الروم، والرابع والعشرين من حردادماه من شهور الفرس ثم يليه الحمل،ثم الجوزاء، ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة: شماليًا صاعداً لصعودها في جهة الشمال.

ثم يأتي الرابع وهو السرطان حيث تكر الشمس راجعة إلى جهة الجنوب ويسمى المنقلب الصيفي، وذلك في العشرين من بؤونه من شهور القبط، ويوافق حزيران من شهور السريان، ويونيه من شهور الروم، آخر كل منها أي عندما يبقى خمسة أيام.. حيث يأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان. ثم الخامس وهو برج الأسد، ثم السادس وهو برج السنبلة ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شماليًا هابطاً لهبوطها في الجهة الشمالية.

ثم السابع وهو برج الميزان في الثامن عشر من توت من شهور القبط، ثم الثامن وهو برج العقرب ثم التاسع برج القوس وفيه أقصر يوم في السنة، وأطول ليلة في السنة وذلك غاية هبوطها في الجهة الجنوبية، ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة جنوبياً هابطاً، لهبوطها في الجهة الجنوبية.

ثم العاشر وهو برج الجدي ثم الحادي عشر وهو الدلو، ثم الثاني عشر وهو برج الحوت، ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة جنوبيا صاعداً، لصعودها في الجهة الجنوبية.. وهذا شأنها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

وفي بيان ما يعرف به ابتداء الليل والنهار، جعل علماء الميقات، والمهتمون بتتبع النجوم له نجوماً تدل عليها بالطلوع والغروب والتوسط، وهي منازل القمر وعدتها: ثمانٍ وعشرون منزلة، لكل منزل ثلاثة عشر يوماً، وهذه المنازل هي: الشّركان، والبِطين، والثريا، والدَّبَران، والهقعة والهنعة، والذِّراع، والنثرة، والطَّرْف، والجبهة، والخرتان، والصَّرْفة، والعَوَّاء، والسماك، والغَفْر، والزبانان، والإكليل والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد

الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية والفرغ المقدم، والفرغ المؤخر، وبطن الحوت.

والمعنى في ذلك أن الشمس إذا قربت من كوكب من الكواكب الثابتة أو المتحركة، سترته أو أخفته عن العيون، فصار يظهر نهاراً ويختفي ليلاً، ويكون خفاؤه غيبة له، ولا يزال كذلك خافياً على أن تبتعد الشمس بعداً يمكن أن يظهر مع للأبصار، وهو عند أول طلوع الفجر، فإن ضوء الشمس يكون ضعيفاً، حينئذ فلا يغلب نور الكوكب فيرى الكوكب في الأفق الشرقي ظاهراً.

أما تسمية الأيام فقيل فيها ثلاث روايات:

الرواية الأولى: ما نطقت به العرب المستعربة من ولد إسماعيل عليه السلام وجرى عليه الاستعمال إلى الآن وهو: الأحد، والإثنين، والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت. والأصل في ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "إن الله عز وجل خلق يوماً واحداً فسمّاه الأحد، ثم خلق ثانياً فسمّاه الإثنين، ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء، ثم خلق رابعاً فسمّاه الأربعاء، ثم خلق خامساً فسماه الخميس" ولم يذكر في هذه الرواية الجمعة ولا السبت، وقد ذكرها سبحانه في كتابه العزيز فقال تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة..)) [الجمعة ٩] وقال عزّ وجل: ((إذا تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعًا..)) [الأعراف ١٦٣]

وقد اختلف في سبب تسمية الجمعة فقال النحاس: "لاجتماع الخلق فيه، وهذا ظاهر في أن الاسم كان بها قديماً، وقيل لاجتماع الناس للصلاة فيه، ثم اختلف فقيل سميت بذلك في الجاهلية، واحتج له بما حكاه أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل: أن أول من سمي الجمعة جمعة كعب بن لؤي جد النبي ﷺ **وذلك** أنه جمع قريشاً وخطبهم، فسميت جمعة، وكانوا لا يعرفون قبل ذلك إلا العروبة. وقيل إنما سميت بذلك في الإسلام، وذلك أن الأنصار قالوا: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه بعد كل ستة أيام، وللنصارى كذلك فهلموا نجعل لنا يوماً نجتمع فيه، ونذكر الله تعالى فيه، ونصلّي، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوا يوم العروبة لنا، فاجتمعوا إلى سعد بن زرارة الأنصاري فصلى بهم يومئذ ركعتين، وذكرهم فسموه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه، وأنزل الله تعالى سورة الجمعة.

على أن السهيلي في كتابه الروض الأنف قال: إن يوم الجمعة كان يسمى بهذا قبل يصلّي الأنصار الجمعة.

أما أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ كما قال أبو هلال العسكري في أوائله: فإنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل على بني عمرو بن عوف، وأقام عندهم أياماً، ثم خرج يوم الجمعة عائداً إلى المدينة، فأدركته الصلاة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، فخطب وصلى بهم الجمعة.

الرواية الثانية: ما يروى عن العرب العاربة من بني قحطان وجرهم وهو قولهم الأول: لأنهم كانوا يسمون الأحد أول، لأنه أول أعداد الأيام، ويسمون الإثنين الأهون: أخذاً من الهون والهوين، وأوهد أيضاً أخذاً من الوهدة وهي المكان المنخفض من الأرض، لانخفاضه عن اليوم الأول في العدد. ويسمون الثلاثاء جُباراً بضم الجيم لأنه جُبر به العدد، ويسمون الأربعاء دُبَّاراً بضم الدال لأنه دبر ما جبر به العدد بمعنى أنه جاء دبره، ويسمى الخميس

مونساً لأنه يؤنس به لبركته، قال النحاس: ومازال ذلك في الإسلام، وكان النبي ﷺ لا يسافر إلاَّ فيه، ويسمون الجمعة العَروبة بفتح العين ومعناه اليوم البيِّن أخذاً من قولهم: أعرب إذا أبان.

الرواية الثالثة: ما حكاه النحاس عن الضحاك: أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، ليس فيها يوم إلاَّ له اسم: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت.

وعن أول أيام الأسبوع ابتداءً، فقد اختلف الناس على ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: أن أول أيام الأسبوع، وابتدءا الخلق الحد واحتج لذلك بحديث بان عباس ﷺ: أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض فقال: ((خلق الله عز وجل الأرض يوم الأحد)) الحديث. وبالحديث الآخر عن ﷺ: ((خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد)). وإذا كان ابتداء الخلق الأحد لزم أن يكون أول الأسبوع الأحد.

المذهب الثاني: أن أول أيام الأسبوع ابتداءً السبت، وبه ابتداء الخلق واحتج له بحديث أبي هريرة ﷺ: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: ((خلق الله التربة يوم السبت)) الحديث. وإذا كان ابتداء الخلق يوم السبت لزم أن يكون أول الأسبوع السبت.

المذهب الثالث: أن أول أيام الأسبوع الأحد لحديث: ((خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد، ثم خلق ثانياً فسماه الإثنين)) الحديث. وابتداء الخلق يوم السبت لحديث أبي هريرة المتقدم.. قال النحاس وهذا أحسنها.

ثم بعد هذا قال القلقشندي وأعلم أنه لا أصل لذلك في الشريعة، ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة، وقد وردت القرعة عن جعفر الصادق ﷺ في توزيع الأعمال على الأيام فقال: السبت يوم مكر وخديعة، ويوم الأحد يوم غرس وعمارة، ويوم الإثنين يوم سفر وتجارة، ويوم الثلاثاء يوم إراقة دم وحروب ومكافحة، ويوم الأربعاء يوم أخذ وعطاء، ويقال: يوم نحس مستمر، ويوم الخميس يوم دخول على الأمراء وطلب الحاجات، ويوم الأربعاء يوم خلوة ونكاح.

ووجهوا هذه الدعوى بأن قريشاً مكرت في دار الندوة يوم السبت، وأن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد، وأن شعيباً سافر للتجارة يوم الإثنين، وأن حواء حاضت يوم الثلاثاء، وفيه قتل قابيل هابيل، وأن فرعون غرق هو وقومه يوم الأربعاء، وفيه أهلك الله عاداً وثموداً، وأن إبراهيم دخل على النمرود يوم الخميس، وأن الأنبياء عليهم السلام كانت تنكح وتخطب يوم الجمعة، وقد نظم بعض الشعراء هذه الاختيارات في أبيات فقال:

لنعم اليوم يوم السبت حقاً ... لصيد إن أردت بلا امتراء
وفي الأحد البناء فإن فيه ... تبدَّى الله في خلق السماء
وفي الإثنين إن سافرت فيه ... سترجع بالنجاح وبالغناء
وإن ترد الحجامة في الثلاثاء ... ففي ساعاته هرق الدماء
وإن شرب امرؤ منكم دواء ... فنعم اليوم يوم الأربعاء
وفي يوم الخميس قضاء حاجٍ ... فإن الله يأذن بالقضاء

ويـــوم الجمعـــــة التـــــزويج حقّـــاً

ولـــــذات الرجـــــال مـــــع النســـــاء

وقد وضع أهل الفن المهتمـون بالأوقـات والحساب: آلات يستدلون بها على ما مضى من ذلك وما بقي ولتحرير المواقيت مثل الاصطرلاب، والطزجهارة والبنكام. وقد اهتم أدباء وشعراء العرب بوصف هذه الآلات، ووردت قصائد في أوصافها عديدة خاصة في العصر العباسي وفي الأندلس حيث كثر الاهتمام بالعلم وآلاته.

أما الشهور فهي عربية وغير عربية. كما تنقسم الشهور إلى نوعين: شهر طبيعي وشهر اصطلاحي.

فالطبيعي هو مدّة مسير القمر من حين يفارق الشمس إلى حين يفارقها مرة ثانية.

وقيل: هو عود شكل القمر في جهة بعينها إلى شكله الأول. وهذا هو الشهر القمري.

وأما الاصطلاحي: فهو مدة قطع الشمس مقدار برج من بروج الفلك وذلك ثلاثون يوماً وثلث عشر يوم بالتقريب وهذا هو الشهر الشمسي، وهذا مذهب الروم والسريان والقبط والفرس.

والعرب قد سمَّت الشهور بأسماء مستعملة وأسماء غير مستعملة.. فأما الأسماء المستعملة فهي الشهور: المحرم، صفر، الربيعان، الجماديان، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعة، ذو الحجة. ويقال إن أول من سماها بهذه الأسماء كلاب بن مرة، وإنما وصفوا هذه الأسماء على هذه الشهور لاتفاق حالات وقعت في كل شهر. فسمي الشهر بها عند ابتداء الوضع، فسموا المحرم محرماً، لأنهم أغاروا فيه فلم ينجحوا، فحرموا القتال فيه فسموه محرماً، وسموا صفراً، لصفر بيوتهم فيه منهم عند خروجهم إلى الغارات، وقيل لأنهم كانوا يغيرون على الصفرية وهي بلاد. وشهرا ربيع لأنهم كانوا يخصبون فيها بما أصابوا في صفر، والربيع الخصب، والجماديان من جمد الماء، لأن الوقت الذي سميا فيه بهذه التسمية كان الماء جامداً فيه لبرده، ورجب لتعظيمهم له والترجيب التعظيم. وقيل لأنه وسط السنة فهو مشتق من الرواجب، وهي أنامل الأصبع الوسطى. وقيل إن العود رجب النبات فيه أي أخرجه، فسمي بذلك. وكذلك تشعبت الأعواد في الشهر الذي يليه، فسمي شعبان. وقيل سمي بذلك لتشعّبهم فيه للغارات، وسمي رمضان أي شهر الحر مشتق من الرمضاء. وشوال من شالت الإبل أذنابها إذ حالت، أو من شال يشول إذا ارتفع. وذو القعدة لقعودهم عن القتال فيه، إذ من الأشهر الحرم، وذو الحجة لأن الحج اتفق فيه فسمي به.

ومن مجموع هذه الأشهر أربعة حرم، ثلاثة سَرْد وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد فرد هو رجب.

أما الأشهر غير المستعملة فهي أسماء كان العرب العاربة اصطلحوا عليها وهي: مؤتمر ناجر، خوّان صوان، ويقال في بُعتان، رُنى أيده، الأصم عادل، ناطل واغل، ورنه بُرَك.

والشهور عند اليهود أسماؤها: تشرى، مرحشوان، كسلاو، طابات، شباط، آذار، نيسار، أيَّار، سيوان، تموز، آب، أيلول.

والشهور العجمية أقسام بحسب الأمم التي تنسب إليها: منها الشهور القبطية، وتنسب لقلطيانوس وكل شهر منها ثلاثون يوماً، وما فضل من عدد أيام السنة الشمسية جعلوه كبيساً في آخر شهر منها، وهي: توت، بابه، هاتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهات، برموده، بشنس، بؤونه، أبيب، مسرى.

وأول توت يكون النوروز، وفي أول يوم كيهك تدخل الأربعينات وهي أربعون يوماً باردة تؤذن بالشتاء، وفي الرابع من برموده تدخل الخمسينات وهي أيام حارّة تؤذن بالصيف.

ومنها شهور السريان والروم وهما متفقان في العدد والدخول، والسريانيون ينسبون شهورهم لأغسطس وهو قيصر، وهذه الشهور منها ما ينقص عن الثلاثين، ومنها ما يوفيها، ومنها ما يزيد عليها، وفيها يقول الكيزاني:

شهور الروم ألوانُ
زيادات ونقصان
فتشرينهم الثاني
وأيلول ونيسان
ثلاثون ثلاثون
سواءٌ وحيزران
وأشباط ثمان بعد عشرين له ثان

والسبعة التي تركها كل شهر منها يزيد يوماً. وأول شهور السريان: تشرين الأول ويوافق أكتوبر من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم تشرين الثاني ويوافقه نوفمبر من شهور الروم، وهو ثلاثون يوماً، ثم كانون الأول ويوافقه ديسمبر من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم كانون الثاني ويوافقه يناير من شهور الروم وهو أول سنتهم، وعدد أيامه أحد وثلاثون يوماً، ثم شباط ويوافقه فبراير من شهور الروم وهو ثمانية وعشرون يوماً وربع يوم، ثم آذار ويوافقه مارس من شهور الروم وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم نيسان ويوافقه إبريل من شهر الروم وهو ثلاثون يوماً، ثم أيَّار ويوافقه مايو من شهور الروم وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم حزيران ويوافقه يونيه من شهور الروم وهو ثلاثون يوماً، ثم تموز ويوافقه يوليه من شهور الروم وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم آب ويوافقه أغسطس من شهور الروم وهو أحد وثلاثون يوماً، ثم أيلول ويوافقه سبتمبر من شهور الروم وهو ثلاثون يوماً.

وأما شهور الفرس فهي موافقة لشهور القبط في العدد، لأن كل شهر منها ثلاثون يوماً، إلا أبان ماه، وهو الشهر الثامن منه فإنهم يضيفون إليه خمسة أيام لأجل النسيء، ويسمونها الأندركاه ولكل يوم من أيام الشهر اسم خاص، يزعمون أنه اسم ملك من الملائكة موكل به، فأسماء الشهور منها: أفريدونماه، (وهو رأس سنتهم) أرديهشت ماه، حرداد ماه، تيرماه، تردماه، برماه، مهرماه، أبان ماه، أدرماهن، دي ماه، بهمن ماه، اسفندار ماه، ويضيفون بقولهم "ماه" أي القمر.

ولا شك أن عدد الأشهر في السنة، وعدد الأيام في الأسبوع من الأمور التوقيتية، وأنها مما علمه الله لآدم كما في قوله تعالى: ((وعلم آدم الأسماء كلها..)) [البقرة،٣١].

وللثعالبي في فقه اللغة آراء حول الألفاظ والكلمات ودلالاتها ما بين تلقيني وتوقيفي، وبين مستقى من دلالته أو صوته، أو اشتقاقه ليس هذا مجال بحثه.

ولما كان من آيات الله في خلقه: اختلاف الألوان والألسن، وذلك بتعدد اللغات، فإن كل لغة لأمة من الأمم للأيام والشهور والسنين عندهم مسميات مستمدَّة من اللغة التي يتكلمونها، ودلالاتها وفق مفهوم هذه اللغة.

أما ثبات الشهور بإثني عشر فأمر لا إشكال فيه، عند جميع الأمم، وإن تخبَّطت فيه العرب في جاهليتها، يجاريها بعض الأمم المماثلة لها

في المعتقد، ونحن معاشر المسلمين نثبت ما أبانه الله كما جاء في سورة التوبة: ((إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ذلك الدين القيِّم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم..)) [٣٦] . وفي الآية التي بعدها جاء ذكر النسيء الذي هو زيادة في الكفر، في تحليله عاماً وتحريمه عاماً، فقد اختلف فيه المفسرون، فقالت طائفة: كانوا يبدِّلون بعض الأشهر الحرم بغيرها من الأشهر، فيحرّمونها بدلها، ويحلون ما أرادوا تحليله م الأشهر الحرم، إذا احتاجوا إلى ذلك، ولكن لا يزيدون في عدد الأشهر الهلالية شيئاً، ثم من أهل هذه المقالة من قال كانوا يحرِّمون صفر مكانه، فكأنهم يقترضونه ثم يوفونه، ومنهم من قال كانوا يحلون المحرم مع صفر، من علم ويسمونها صفرين ثم يحرمونها من عامل قابل، ويسمونها محرَّمين، ولذا جعل الله الأهلة مبيِّنة لأيام الشهر، ودخوله وخروجه، فكانت العبادة في الإسلام مقرونة بذلك كما قال تعالى: ((يسألونك عن الأهلة، قيل هي مواقيت للناس والحج..)) [البقرة، ١٨٩].

حيث لا يعرف الناس رمضان دخولاً وخروجاً إلاَّ بالهلال، وقد قال ﷺ: ((صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غمَّ عليكم – والضمير يعود للهلال – فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً)).

وكذا لا يدركون مواعيد الحج، ودخول الشهور كلها وخروجها إلاَّ برؤية الهلال، ولذا فإن الشهر القمري ينقص عن الشهر الشمسي بما يقارب ١٣ يوماً في السنة، أي في كل ٣٠ سنة شمسية نقص سنة قمرية. ومن هنا نلمس أن المطبِّقين للسنة الشمسية قد علوا الفرق موزَّعاً على شهور السنة، حسب اصطلاح الواضعين واتفقوا في البداية على أن تكون بعضها من ٣١ يوماً وبعضها من ٣٠ وبعضها أنقص، حتى يكون التوزيع مستغرقاً للفرق، فكان هذا عوضاً عن النسيء عند الجاهليين.

أما الصلاة عند المسلمين، فهي في أوقاتها الخمسة يوميًّا تقترن بالساعات التي كانت تعرف بالشمس ومسيرتها نهاراً، وبغروبها وغروب الشفق ليلاً، ومع طلوع الفجر للصيام بالإمساك، ولوجوب صلاة الفجر، كما في حديث جبريل عليه السلام الذي حدد فيه وقت كل صلاة: بدءاً ونهاية، وقال: يا محمد الصلاة بين هذين الوقتين، وخلاصة ذلك لمن لم يستحضره: الظهر بعد زوال إلى أن يكون ظل كل شيء طوله، والعصر من كون ظل كل شيء طوله، إلى أن يكون مثليه.. وهذا هو قرب غروب الشمس حيث وقت النهي عن الصلاة، ومن غروب الشمس إلى أن يغيب الشفق يكون وقت المغرب، والعشاء من غروب الشفق إلى أن يمضي ثلاث الليل، والفجر من طلوع الفجر وهو الخيط الأبيض من الخيط الأسود، إلى قرب طلوع الشمس.

وهذه الأوقات التعبُّدية: صلاة وصياماً قد فرضت على الأمم قبلنا، ولكنهم عدَّلوا وبدَّلوا كما أخبر الله عنهم في كتابه الكريم.

وجبريل عليه السلام لم يحدد الأوقات كما في الحديث بالساعات المعروفة اليوم، التي اصطلح فيها أن الساعة ستون دقيقة، والدقيقة ستون ثانية، والثانية دقتان، والبلاغيون يقولون: لا مشاحة في الاصطلاح.




عيناك والشوق..

شعر: سبتي الهيتي - العراق

عُــذراً لعَينيــكِ، إنْ قَصَّــرتُ وإنشــغلتْ

عَينــايَ، عَنــكِ، فَقَــدْ أضناهُما الــوطن

عُــذراً.. وعــذراً، فمــا ينفــكُّ يُســحِرُني

بفـــاتر اللحـــظ في جفنيهمـــا الحـــزَنُ

ويَعتريـــــني، إذا أســـبَلتِ هُـــدبَهُما

أســـىً شَـــفيفاً، كـــأني فيـــك أُمـــتَحنُ

عينـــاكِ والشـــوقُ والأشـــياءُ تســـألني

وأنـــتِ أنـــتِ الجـــواب الرائـــعُ الحسَـــنُ

وتنظـــرينَ، فأنـــتِ الـــريمُ خائفـــةً

وتطـــرقينَ، فأنـــتِ البحـــرُ والسَـــفَن

وأنـــتِ هـــذا القـــوامُ المرهـــفُ اللـــدنُ

وأنـــتِ ذاكَ الهـــدوءُ الحلـــوُ والشـــجنُ،

أمـــيرةٌ، يـــا ابتســـامَ النـــور في ســـكنٍ

أرقـــى، وأجمـــلُ مـــا يحلـــو بـــه الســـكَنُ







وحلـــوةٌ تخطـــف الأبصـــار في خفـــرٍ

ومـــــن دلالٍ بهـــــا الأرواح تُفتَـــــتَنُ

رشـــيقةٌ، شـــبهُ غصـــن البـــان طلعتهـــا

إذا الغصـــونُ تشـــنتْ أو مشـــتْ فَـــنَنُ

يـا أنـتِ، لـولا هيامي فيك ما سجعتْ

ورقـــاءُ أو هطلـــت في روضـــيَّ المـــزنُ

جميلـــةُ، تشـــتهيكِ الـــنفسُ راغبـــةً

أنْ لا يَضُـــمك في أردانـــه الوسَـــنُ

خـــداً أسـيلاً كمـاءِ الـــوردِ يُسـكبُهُ

علـــى نضـــارةِ جيـــدٍ، فرعـــكِ اللـــدنُ

ومئـــزراً، مـــن نحـــولِ الخصـــرِ، تثقلُـــهُ

في الصـــدرِ طـــيران، مطلـــوق ومُـــرتَهَنُ

ومَبســـمٌ موصـــلٌ في قلـــبِ عاشـــقةٍ.

يَطيـــبُ مِـــن ريقهـــا في دره اللـــبن

إنـــي لأســـكرُ بـــالأحلامِ، حـــين أرى..

مـا لا يَـرى فيـكِ مـن ذاقـوا ومـا فطنـوا

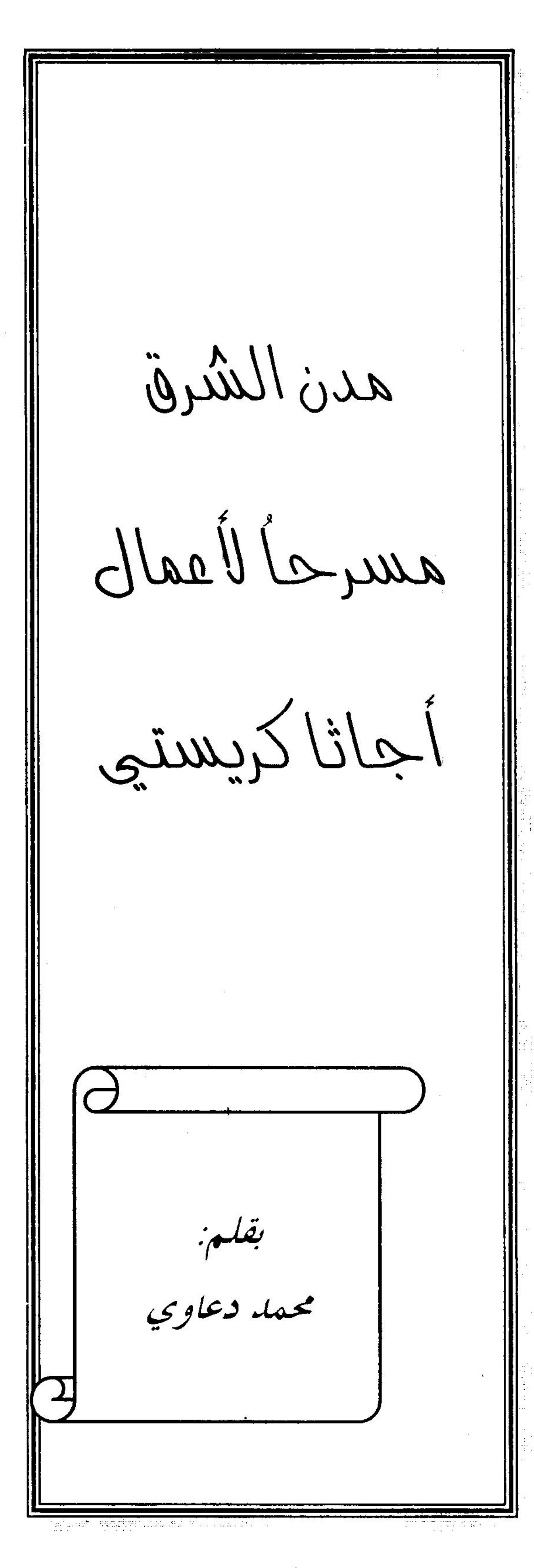
وأســـتفيقُ.. ومازلنـــا فمـــاً لفـــمٍ

نســـقي كلينـــا علـــى دفءٍ ونحتضـــنُ

فـــيملأُ الحـــبُّ روحينـــا علـــى أمـــلٍ

أن لا نفيـــقَ، فلـــيس الحـــبُّ يُختـــزن



كريستي هو اللقب الذي حصلت عليه من زوجها الكولونيل أرشيبالد كريستي وبقيت محتفظة به حتى بعد طلاقها منه وزواجها بآخر. أما اسمها الأصلي فهو أجاثا ماري كلاريسا و هي ابنة لأب أمريكي وأم بريطانية ولدت عام ١٨٩٠ في انكلترا وابتدأت صلتها بالشرق باكراً ففي العشرين من عمرها كانت مع والديها في القاهرة وكانت والدتها تحرص على اطلاعها على الآثار المصرية والتاريخ وكما تقول أجاثا ((لقد حاولت أمي أن توسع آفاقي باصطحابي إلى المتحف المصري وقد اقترحت بأن نذهب في رحلة بحرية على امتداد النيل لمشاهدة أمجاد الأقصر)) وكان للقاهرة أثر كبير في نفس أجاثا فإثر عودتها مع والديها إلى إنكلترا بوقت قصير كتبت روايتها الأولى عن أحداث تجري في القاهرة وأسمتها ثلج فوق الصحراء حيث رسمت شخصياتها عن أناس صادفتهم في غرفة الطعام في الفندق.

صدرت قصتها الأولى (المسألة اللغز في ستايلز) وهي قصة بوليسية خيالية عندما كانت في الثلاثين من عمرها وكانت تعمل ممرضة في إنكلترا وبعد ذلك بست سنوات شدت الأنظار إليها بقصتها (مقتل روجر أكرويد) وهو العام الذي توفيت فيه والدتها وانفصلت عن زوجها الأول وعندما وجدت نفسها وحيدة مهمومة قررت التوجه إلى الشرق فسافرت منفردة بالقطار من لندن إلى دمشق ثم إلى بغداد بواسطة حافلة وقد ألهمتها هذه الرحلة عدة قصص بوليسية منها (جريمة في قطار الشرق السريع) و(بوابة بغداد) وهي قصة قصيرة بطلها يدعى باركر باين يتم فيها التخلص من رجل على حافلة متجهة إلى دمشق.

لقد أذهلت هذه الرحلة أجاثا كريستي وحققت لها الكثير من السلام والهدوء والطمأنينة وهي تقول (إن هذه الرحلة هي ما كنت أتوق إليه لأنها تقضي على كل الهموم ما الذي يمكن أن يطلبه المرء من الحياة بعد ذلك).

تحت رئاسة عالم الآثار السير شارلز وولي عملت أجاثا كريستي بالتنقيب الأثري في أور جنوب العراق وهناك كانت على موعد مع الأقدار

فتعرفت على وكيل البعثة الاستكشافية في أور ماكس مالووان الرجل الذي سيصبح زوجها الثاني والذي تقع في غرامه خلال رحلة عودتها من أور إلى بغداد وكان مالووان قد استقال من عمله وقرر العودة إلى إنكلترا عن طريق إيران مصطحباً معه كريستي الذي تزوجها فور وصولهما البلاد الإنكليزية وسرعان ما يجد مالووان عملاً في التنقيب عن الآثار في نينوى شمال العراق وتنضم إليه أجاثا لينتقلا بعد ذلك للعمل في شمال شرق سوريا وعندما تقع الحرب العالمية الثانية ينضم مالووان إلى سلاح الجو الملكي البريطاني شمال أفريقية وتبقى أجاثا في لندت عاملة في مجال التمريض والصحة وخلال ذلك تستعيد أجاثا ذكرياتها في سوريا وتكتب كتابها (تعال خبرني كيف تعيش).

بعد الحرب العالمية الثانية عين ماكس مالووان رئيساً لقسم آثار أسيا الغربية في جامعة لندن واستعد هو وزوجته كريستي للعودة إلى الشرق مرة أخرى مديراً للمدرسة البريطانية في علم الآثار في بغداد وعلى أرض العرق عادت المؤلفة من جديد إلى ممارسة كتاباتها الأدبية إلى جانب مشاركة زوجها في أعمال التنقيب إذ كانت مسؤولة التصوير والقائمة بأعمال تنظيف القطع الأثرية المكتشفة. بقي الزوجان في العراق حتى عام ١٩٦٠ ليعودا إلى بلادهما ويكرما فيحصل مالووان على لقب فارس لقاء أعماله و تحصل أجاثا على لقب سيدة الإمبراطورية البريطانية وبعد حياة حافلة مليئة بالنشاط والإنجازات يتوقف ذلك القلب الناضح بالشباب والحيوية والمرح عن الخفقان و تموت عام ١٩٧٦ أجاثا كريستي المؤلفة المشهورة عاشقة الشرق الذي سكن في عقلها وقلبها وعشش في خيالها وكتبت فيه وعنه أروع أعمالها وكان ملاذ هادئاً لروحها نعمت فيه بالسلام والطمأنينة وتنشقت فيه عبق الماضي بإشراقه وتلألئه الساحر الذي يأخذ بالأبصار وآنست فيه السكينة والراحة والهناء.

وعن السلام الذي نعمت به خلال حياتها في الشرق تقول أجاثا وهي تتحدث عن رحلة في الريف السوري (هذا السلام المطلق الرائع موجة عظيمة من السعادة تجتاحني وأنا الآن أدرك كم أحب هذا البلد و كم هذه الحياة كاملة ومرضية) وتقول في موضع أخر (أنا أستمتع في الكتابة في الصحراء فليس هناك ما يشغلني كالهاتف والمسارح والأوبرا والبيوت والحدائق). لقد وفر الشرق لأجاثا فرصة ذهبية للتفرغ للكتابة وكان مصدر للإيحاء والإلهام بالنسبة لها ومجالاً للتأمل والتفكير.

ألفت أجاثا أكثر من مئة عمل منها إحدى وعشرين مسرحية كانت نتيجة محبتها للشرق وارتباطها الشديد و المولع به و قد حقق لها الشرق شهرة واسعة في الأوساط الأوربية وبنى حولها هالة سحرية فكانت أنظار الغرب متوجهة إلى الكاتبة الغربية التي عاشت في الشرق وكتبت عنه ترقب بشغف و اهتمام بالغين إنجازاته الإبداعية فعيون الجمهور مشدودة لأعمالها وأذهانهم مدهوشة بما تكتبه المؤلفة الأكثر شهرة وشعبية فإلى عشرين لغة ترجمت أعمالها وعلى كبريات المجلات وأكثرها رواجاً نشرت قصصها وعن إبداعاتها تم اقتباس أشهر الأفلام السينمائية كما تم تحويل الكثير من أعمالها إلى أفلام وعرضت إحدى مسرحياتها في لندن على إحدى وعشرين سنة أكثر من ثمانية آلاف و ثمان مئة وخمسين مرة وهي مسرحية (مصيدة الفئران) محققتاً رقماً قياسياً وكذلك اعتبرت كتبها الأكثر مبيعاً في العالم فبلغت ثلاثمائه وخمسين مليون نسخة.

جرت أحداث الكثير من أعمال أجاثا كريستي في مدن الشرق التي كانت ساحة تحرك عليها أبطال قصصها ومسرحياتها، وتكررت أسماء مثل القاهرة ودمشق وبغداد وشيراز في كتاباتها بل كتبت أعمالاً عن أبطال شرقيين فلها مسرحية باسم (أخناتون) استلهمتها من تاريخ مصر القديمة الفرعونية. وأخناتون هو الملك الشاب الذي قام بثورة دينية و دعا إلى التوحيد ونبذ عبادة الآلهة المتعددة فلقي حتفه سريعاً إثر مؤامرة الكهنة عليه. وقد بلغت هذه المسرحية أحد عشر فصلاً ولعب فيها اثنتين وعشرين شخصية.

وكذلك فعلت حين كتبت قصتها (الموت يأتي في النهاية) فرجعت إلى التاريخ المصري القديم مستلهمة إياه ومستنطقة تلك العصور الغابرة لتبعث من جديد قصة أناس عاشوا قبل أربعة آلاف عام فتدهش القارئ بخيال خصب مبدع لا يخلو من الغرابة ومخالفة المألوف واللفتة الذكية وتكشف لنا النقاب عن جريمة حدثت ضمن عائلة موظف صغير أيام حكم الفراعنة لوادي النيل وتحكي لنا قصة المكيدة التي دبرت بليل وفيها تصف الحياة اليومية للناس في تلك المرحلة بشكل دقيق جداً وكأنها تعتمد الوثائقية وهذا ليس بمستغرب لأنها عملت في مجال الآثار وكانت على صلة وثيقة بالتاريخ.

ويقول احد محرري صحيفة نيويورك تايمز (مع أن أجاثا كريستي تقدم في الموت يأتي في النهاية لغزاً إجرامياً شائقاً كعادتها إلا أنها نجحت بشكل يدعو للإعجاب في تصوير الناس في مصر القديمة كأشخاص أحياء وليس كمومياوات منبوشة في التراب).

وقد ساعدها العمل في التنقيب عن الآثار في العراق على اختيار مجموعة فريدة من الشخصيات وظفتها في قصة (جريمة في بلاد ما بين النهرين) وفي نينوى أصدرت أجاثا واحداً من أعمالها البارعة (موت اللورد إدجواير) عندما كان العمال يحفرون حفرة بعمق ثلاثين متراً لاكتشاف عاصمة الإمبراطورية الآشورية وحين أخرجوا جمجمة من التراب أطلقوا عليها على الفور اسم اللورد إدجواير. وفي غرفة بسيطة خالية من وسائل الرفاهية في مواقع التنقيب الأثري في العراق أو سوريا كان مصنع الكلمات الخاص بأجاثا كريستي حيث تركب وصفاتها السحرية وتضع لمساتها الفنية الفاتنة على الأوراق التي تدفع بها إلى المطابع فتخرج ملايين النسخ من القصص التي توزع في جميع أرجاء العالم.

هيركول بوارو المحقق السري الخبير هو الشخصية التي اخترعتها أجاثا ليكون بطلاً ألمعي الذكاء في عدد من أعمالها متنقلاً بين مدن الشرق العربية وهو يبحث عن الحقيقة فيميط اللثام عن جرائم القتل التي يجيد مرتكبوها أخفاء الأدلة و يتقنون فن المراوغة والخداع ففي قصة (جريمة في بلاد ما بين النهرين) يحل بوارو قضية تتعلق بمجموعة انتحارات في مكان التنقيب عن الآثار في العراق وفي قصة جريمة في وادي النيل يكشف بوارو القاتل على ظهر سفينة تقل السياح ماخرة عباب نهر النيل وفي قصة (موعد مع الموت) يكشف بوارو مجرماً ارتكب جريمته في البتراء المدينة الأثرية الرابضة في الأردن.

وبنفس القدر من الكفاءة يحل باركر باين الشخصية الموازية لبوارو والتي تلعب دور البطولة الرئيسية في عدد من قصص كريستي الأخرى الألغاز والمعضلات. وتقع تلك الأحداث في مدن الشرق كدمشق وبغداد وشيراز ففي قصة (بوابة بغداد) يتم التخلص من رجل على حافلة متجهة إلى دمشق وفي قصة (المنزل في شيراز) تجري التفاصيل في مدينة شيراز الإيرانية وفي كلتا القصتين يقوم باركر باين بمهمة المحقق الذي يكشف غوامض الأمور.

لقد عاشت كريستي زهاء ثلث قرن مقيمة أو زائرة في سوريا وتركيا ولبنان والأردن ومصر والعراق وإيران برفقة زوجها ومعظم هذه البلاد زودتها بمسارح جريمة للقصص البوليسية التي ألفتها.

إنها المؤلفة العالمية التي عاشت في الشرق عاشقة مولهة لروحانيته وعاش الشرق في قلبها وسما بروحها وفي أكنافه عرفت معنى العظمة والخلود وفي ربوعه ذاقت طعم الحب وهنأت بحياة الزوجية السعيدة وتوفر لها مناخ مناسب للإبداع والخلق الفني كانت أجاثا كريستي نتاج علاقة الأنا بالآخر ولقاء الغرب (المستعمر) بالشرق (المستعمر) لقد وقعت ابنة الإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس والقادمة إلى الشرق خلال فترة احتلاله وفي ظل حكومات الانتداب السامي تحت تأثير سحر الشرق فأسرها وهي الآتية من بلاد حاولت وضع الشرق في قيود الأسر ولم تأل جهداً في سبيل دذه الغاية إلا أن للشرق سحره الطاغي.